جامعة محمد خيضر بسكرة

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم الفلسفة

مذكرة ماستر

العلوم الاجتماعية

فلسفة

فلسفة عامة

رقم: أدخل رقم تسلسل المذكرة

إعداد الطالب:

زين الدين بركة

يوم: 26/04/2018

مفهوم التصوف عند محمد إقبال

لجنة المناقشة:

فتح الله كشكار	الرتبة	الجامعة	مشرفا
العضو 2	الرتبة	الجامعة	الصفة
العضو 3	الرتبة	الجامعة	الصفة

السنة الجامعية : 2023-2024

شكر وتقدير

باسم الجوهر المتعال

ثم بروح إقبال، نقول:

***

يتقلب القلب في ذكر الأب

هو الأخ هو الحبيب هو الجد.

بروحه تصبح اللحظة أبد،

وبذكره يتعطر الجهد و الجد.

ها أنا هنا في الحياة أجتهد،

وأنت في يد الحق كنسيم يهب.

تحج الذكرى لك يا "حاج"،

وفناؤك بالموت بقاء عندي و وجد.

***

إلى حبيب ليس بمثله أريد،

تجلت لي فعلا و قالت هل أزيد!

فرحة أهديها لك،

وهذا فقط بداية المفيد.

***

إلى من علمني الأسماء بتوفيق معلم آدم،

لك مني كل شكر قادم.

لعلك قلت حرف تراه عدم،

وأراه بنور القلب علما خادم.

***

صدق الصديق في وقوفه بجنبي،

فرؤياه لي وحدها محت ذنبي.

حتى مال القلب عن ذكر ربي،

فرجع بحضوره دعائي و ذكري.

***

والغائب عن الذكر و الإهداء اعذرني،

فإني إنسان لــ"أرسطو" فان.

وقل لعله أراد ذكري،

وهذا فكري!

ولكن طبيعة المقام تجلت كإنسان.

✍ زين الدين برك

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
صفحة الواجهة	
شكر وتقدير	
مقدمة	
الفصل الأول: رؤية إقبال للتصوف الإسلامي	
المبحث الأول: ضبط مفهوم التصوف	9
المطلب الأول: أصل لفظة التصوف	9
المطلب الثاني: تحليل مفهوم التصوف	13
المبحث الثاني: موقف "محمد إقبال" من التصوف الإسلامي	27
المطلب الاول: أصل التصوف الإسلامي عند إقبال	27
المطلب الثاني: التصوف الإقبالي بين النقد والبناء	34
الفصل الثاني: فلسفة الذات عند محمد إقبال	
المبحث الاول: مفهوم "خودي"	49
المطلب الأول: تعريف إقبال لـ"خودي"	51
المطلب الثاني: طبيعة "خودي"	57
المبحث الثاني: إثبات "خودي"	69
المطلب الأول: ما تقوى به "خودي"	69
المطلب الثاني: مراحل تربية "خودي"	75
الفصل الثالث: غاية التصوف الإيجابي عند محمد إقبال	
المبحث الأول: نظرية الإنسان الكامل	83
المطلب الأول: تعريف خودي الإنسان	83

المطلب الثاني: صفات الإنسان الكامل	88
المبحث الثاني: نقد وتقييم فكر إقبال الصوفي	94
المطلب الأول: نقد فكر إقبال	95
المطلب الثاني: تقييم فكر إقبال	98
خاتمة	
قائمة المصادر والمراجع	
الملخص	

مقدمة

مقدمة

منذ القدم، ظهر الفلاسفة، المتصوفة والشعراء لتذكير الإنسان بحقيقته الجوهرية؛ حقيقة أنه يتركب من جانب عالي القيمة(الروح) مع جانب مادي متناهي (الجسد)، فحاولوا انطلاقا من ذلك أن يوقظوا في الإنسان الشرارة الإلهية التي تعتبر جوهر تركيبتهم.

وبالحديث عن الجوهر، بين الحق سبحانه هذه الحقيقة من خلال وصفه لخلق الإنسان الأول في القرآن الكريم، بأنه نفخ فيه روحه، نتيجة لذلك، فإن الإنسان ليس جسد فيه روح، بل هو روح متأصلة في جسد مادي متناهي، وبعد خلقه في أحسن تقويم سقط الإنسان من مرتبته العليا إلى أسفل السافلين. والسؤال يطرح نفسه هنا، هل يستطيع الفرد أن يعود إلى مكانته الأصلية المتعالية التي خلقه الله بها؟

لقد أدرك الفلاسفة والمتصوفة جوهرية المشكلة، لأنها تتعلق بالمصير، ولذلك كانت فلسفاتهم وأشعارهم مرتبطة بهذه المشكلة من قريب أو بعيد، كما تجلت حقيقة الإنسان الإلهية في تجاربهم الصوفية وآراءهم الوجودية والكسمولوجية.

في القرن العشرين، لا يوجد مفكر أو صوفي مسلم تعمق في هذا الإشكال مثلما فعل الفيلسوف الشاعر محمد إقبال (1877-1938)، ووضع بذلك فلسفة متكاملة متمحورة حول مفهوم "خودي" من أجل أن يناقش مصير الإنسان المسلم من كل أبعاده وبطوره.

وكان للتصوف مكانة كبيرة في قلب الشاعر وفي فكره، يرى أنه السبيل الوحيد الذي يمكنه أن يحل إشكالية مصير الإنسان، ولكن ما مصير الإنسان المسلم ؟ هل مصيره أن

يعيش للآخرة، وبذلك يرى حياته الدنيوية بنظرة دونية، كونها عرض مثل الجسد متناهية ، أم العكس من ذلك، ماهو الطريق الحق؟

كانت هذه التساؤلات أساس فلسفته الصوفية التي انتقلت من التأثر الى التأثير، من استهلاك نتائج تجارب الغير الروحية، إلى توليد أفكاره الخاصة التي تحاول أن تؤلف بين جانبه الوجداني وجانبه الواقعي.

لهذا حاجج محمد إقبال على أن الحركة الصوفية هي سبب أزمة الفرد المسلم المتخاذل وبرر ذلك في نقده للتصوف، ومن ثم بناءه لمفهوم يترابط بشكل مميز مع رؤيته لفلسفة الحياة.

وبهذا، كانت فلسفته خودي تدور حول مشكلة تطور الإنسان، أو تقوية "خودي" وإثباتها لتحقيق أعلى مراتب الكينونة، مرتبة يكون فيها الإنسان صورة الله في الأرض، فيكون بذلك حر خالد، وهذا الإنسان هو الإنسان الكامل.

1. أهمية البحث ودواعي اختياره

نرى أن للبحث الذي سنعالجه قيمتين، القيمة الأولى تكمن في دراسة علم من أعلام الفكر الإسلامي الإصلاحي ألا وهو محمد إقبال، فهذا الشاعر والفيلسوف جمع بين العقل والقلب قولا وعملا، ينبغي علينا أن نهتم بكتاباته والبحث فيها كفلاسفة مسلمين.

أما القيمة الثانية تكمن في مفهوم التصوف، والتصوف ليس فقط كلمات تقال وخيال يحاك، بل نراها أسلوب لحياة كريمة، ومنه ينبغي علينا دراسة هذا المفهوم دراسة متعمقة لارتباطها مع واقعنا الذي انتشر فيه الإلحاد والعدمية.

واخترنا البحث لسببين

- ✓ أولا:السبب الموضوعي: رأيت نزوح الطلبة على دراسة تراثنا الفلسفي الصوفي لكونه معقد، ونجم عن ذلك أن أكثر الدراسات التي رأيناها، تعالج التصوف بطرح تعريفات لمتصوفة مربوطة بأزمة معينة في التاريخ الإسلامي، طرح التعاريف هكذا لا يضيف شيء للبحث الفلسفي في الجزائر، ومن جهة أخرى، تغافل واضح عن دراسة المصادر الإقبالية وتطور فكره خاصة كتابيه "تطور الفكر الفلسفي في إيران" و"تجديد الفكر الديني في الإسلام"، فغالبية الباحثين يميلون لشعره أكثر من نثره لكونه شاعر من المرتبة الأولى، وحاولنا تغيير ذلك قدر المستطاع.
- ✓ ثانيا: السبب الذاتي: نتشارك مع إقبال في نفس القدوة، وهو مولانا جلال الدين الرومي (1207–1273) الشاعر والصوفي الفذ، لطالما تأثرنا بشعره وأفكاره التي تبث فينا وسط الآلام الأمل وتقربنا من رحمة الله، وكذلك نميل شخصيا لكتابة الشعر الحر هذا ما أدى بنا لقبول الموضوع بصدر رحب.

2. إشكالية البحث ومشكلاته الفرعية

ولا يقوم البحث الفلسفي إلا على إشكالية تحدد معالم الدراسة موضوعا ومنهجا، وحددنا لهذا البحث الإشكالية التالية:

- ➢ كيف يمكن مقاربة الإنسان الكامل انطلاقا من مفهوم التصوف عند محمد إقبال؟

ولدراسة الإشكالية بعمق نطرح التساؤلات التالية:

– ما مفهوم التصوف؟

- ماهو موقف محمد إقبال من التصوف الفلسفي؟
- ما هو أساس فلسفة محمد إقبال؟
- كيف يمكن لـ خودي أن تكون أساس العالم؟
- ما هو الطريق لتحقيق خودي وإثباتها؟
- ماهي الغاية من إثبات خودي ؟
- ماهي علاقة التصوف الايجابي بإثبات خودي؟
- ما هو الإنسان الكامل؟
- ما هي صفاته ؟
- كيف نقد إقبال ؟
- ما هو نقدنا وتقييمنا لفلسفته الصوفية؟

3. أهداف البحث

تهدف دراستنا لإيجاد علاقة ضمنية بين مفهوم التصوف والإنسان الكامل ضمن فلسفة الذات عند محمد إقبال، من خلال وضع أساس مفهومي يكون لنا مفتاح الإجابة عن الإشكالية.

4. المناهج المعتمدة

لا تستقيم أي دراسة بدون مناهج محددة؛ من شأنها أن توفر الطريق الواضح وتوفر الآليات الأساسية في الانتقال من العالم إلى الخاص ومنه حل الإشكال الجوهري، وفي بحثنا هذا اعتمدنا على المناهج الآتية:

- المنهج التحليلي: تمثل ذلك في دراستنا المفهومية لمفهوم التصوف، حيث حللناه في مستويات انتقلنا فيها من الواقع إلى ماوراءه، وكذلك تمثل في تحليلنا للأفكار الميتافيزيقية التي تقوم عليها فلسفة الذات كموضوع الخلق المستمر.
- المنهج النقدي: ويظهر ذلك من خلال عرضنا لنقد إقبال للفلسفات التي أثرت تأثير سلبي على التصوف الإسلامي، وكذلك يظهر في نقد المفكرين له في آخر مبحث مع نقدنا الخاص.
- المنهج التاريخي: ويظهر المنهج في بحثنا لكوننا ندرس ظاهرة تقع في الماضي وندرس فيلسوف في العصر الحديث، إذن لا بد من استخدام المنهج التاريخي كعرضنا لسيرة إقبال مثلا.

5. خطة البحث

من خلال الإشكال الذي طرحناه سابقا، اعتمدنا على خطة بحث تتكون من ثلاث فصول مع مقدمة وخاتمة، اخترنا أن ندرس مفهوم أساسي للفيلسوف في كل فصل.

ركزنا في الفصل الأول على رؤيته للتصوف، ودرسناه في مبحثين، المبحث الأول خصصناه لدراسة مفهوم التصوف الإسلامي لغة و اصطلاحا، بهدف معرفة ماهيته، ثم انتقلنا للمبحث الثاني الذي درسنا فيه موقفه من التصوف بالتحليل، فكان المطلب الأول مبني على إيضاح موقف إقبال من أصل التصوف الإسلامي كموقف مضاد للمستشرقين، ثم درسنا في المطلب الثاني بناء إقبال لمفهوم التصوف انطلاقا من نقده، وانتهينا إلى استنتاج أن هناك نوعين من التصوف، التصوف السلبي المنبوذ، والايجابي المرغوب.

أما في الفصل الثاني، فخصصناه لدراسة فلسفة إقبال الذاتية، وحاولنا أن نبين معالمها الفلسفية خاصة في المبحث الأول، وجعلناه مخصص لتعريف خودي والتفصيل في طبيعتها الميتافيزيقية، أما المبحث الثاني فهو مرتبط بشكل كبير بالتصوف الايجابي، حيث نقدم فيه الطريق السلوكي الذي ينبغي على الفرد سلوكه لإثبات ذاته حتى نصل إلى النيابة الإلهية التي يكون فيها الإنسان كاملا بمفهوم إقبال.

وفي الفصل الثالث والأخير، درسنا فيه غاية التصوف الايجابي من خلال نقلنا للتعريف الفلسفي للذات الإنسانية وو فرقنا بينها وبين الذات اللامتناهية لنحدد بعد ذلك صفات الإنسان الكامل، و كان هذا في المبحث الأول، أما المبحث الثاني فوضعنا فيه نموذجين من المفكرين وعرضنا نقدهم الفلسفي لفلسفة إقبال، لننهي الدراسة بتقييمنا الخاص المتواضع، الذي حاولنا فيه ذكر بعض الجوانب الايجابية والسلبية المتعلقة بفكر إقبال الصوفي.

6. تحديات البحث

في ممارستنا للبحث وجدنا بعض التحديات، أهمها:

الترجمة الشعرية للأستاذ عبد الوهاب عزام لديوانه أسرار خودي في كتابه الأسرار والرموز، اتسمت ترجمته بالصعوبة، وكأنك أمام شعر جاهلي، ومع اعتمادنا الثقيل على المصادر بسبب سطحية الدراسات التي طلعنا عليها، ورأينا أنها لم ترتقي للعمق اللازم، وكان ذلك تحديا كبيرا في بحثنا، اضطررنا أن نعتمد على ترجمات إنجليزية ونقارن بين المفاهيم كان هذا حلنا لهذا التحدي

أما التحدي الآخر هو ضعفنا المنهجي، فوجدنا أنفسنا أمام أفكار ينبغي أن تحلل فلسفيا بدقة و صرامة، وكان هذا تحدي كبيرا، ولكننا حاولنا أن نكون أهلا لهذا التخصص بطريقة ما.

الفصل الأول: رؤية إقبال للتصوف الإسلامي

المبحث الأول: ضبط مفهوم التصوف

المطلب الأول: أصل لفظة التصوف

المطلب الثاني: تحليل مفهوم التصوف

المبحث الثاني: موقف إقبال من التصوف الإسلامي

المطلب الأول: أصل التصوف الإسلامي عند إقبال

المطلب الثاني: التصوف الإقبالي بين النقد والبناء

الفصل الأول: رؤية إقبال للتصوف الإسلامي

المبحث الأول: ضبط مفهوم التصوف

المطلب الأول: أصل لفظة التصوف

إن معرفة الاشتقاق اللغوي للفظة التصوف يعطينا أساسا متينا في دراستنا الفلسفية وباعتبار أن اللغة هي انعكاس للعمليات الفكرية للإنسان، وعليه، فإن البدء بمعرفة أصل لفظة التصوف أمر لا بد منه.

تعتبر لفظة التصوف من الألفاظ التي اختلف في بيان أصلها، وذلك لكونها لفظة دخيلة على اللغة والفكر العربي الإسلامي، باعتبار أن الألفاظ التي كانت تعبر عن حقيقة الدين والطريقة الإسلامية هي الإسلام، الإيمان والإحسان[1]، أما التصوف فهي لفظة مجهولة الاشتقاق والمصدر.

وكأي لفظة لا تجد لها في اللغة والفكر أساسا واضحا، يدور حولها الخلاف، وكان للفظة التصوف نصيبا وافرا من الاختلاف بين اللغويين، العلماء والمتصوفة من أجل تحديد أصل اللفظة.

[1]- علي بن العبيد أحمد الوصيفي، موازين الصوفية في ضوء الكتاب والسنة، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، مصر، 2012، ص 36.

1-الاختلاف في أصل اللفظ "التصوف"

يرى "عبد الله أحمد بن عجيبة"*في كتابه "إيقاظ الهمم في شرح الحكم" اشتقاق كلمة التصوف يرجع إلى الصفة، أي الاتصاف بالمحاسن وترك الأوصاف الرذيلة[1] وهذا الرأي لا يتناسب مع إطلاق اللفظ، فينبغي أن يطلق عليهم بدل ذلك بلفظ "صفي[2].

وقيل أنها نسبة إلى الصفوة من خلق الله، ولو كان كذلك لأطلق عليهم بلفظ "صفوي"[3].

وقيل أن أصل اللفظة راجع لقبيلة من العرب كانوا يعيشون بجوار مكة المكرمة في الزمن القديم، وهذا أصل ضعيف للفظ باعتبار أن نسب القبيلة لم يعرف إلا في الجاهلية[4].

وهناك قول آخر يرجع فيه اللفظ إلى كلمة "صوفيا" اليونانية، وتعني الحكمة وحجتهم في ذلك أنه ما دام اللفظ ليس له أثر في اللغة العربية.

* عبد الله أحمد بن عجينة (1748-1809) أحد علماء أهل السنة والجماعة، ومن أعلام التصوف السني في المغرب، من أهم أعماله: " إيقاظ الهمم في شرح الحكم، وكان الكتاب موجها لشرح الحكم العطائية.

[1]- علي شويني، نادية درقام، التصوف الإسلامي ومشروعية التسامح جلال الدين الرومي نموذجا، المجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، الشلف، المجلد 12، العدد 1، 2019، ص 74.

[2]- أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، كتاب التصوف، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، مج11،2004، ص 6.

[3]- المصدر نفسه، ص6

[4]- المصدر نفسه، ص6

إذن يرجعون أصل كلمة التصوف يرجع للغة اليونانية، وعليه لفظة "صوفيا" أو"ثيوصوفيا"- التي تعني الإشراق ومحبة الحكمة الإلهية- هي أصل لفظ التصوف، ومن بين من أخذ بهذا الموقف المستشرق "فون هامر"*[1].

2- الراجح في أصل لفظ "التصوف"

في أي مسألة تتعدد فيها الأقوال، ينبغي علينا أن نجد الراجح منها، فاختلاف العلماء واللغويين في أصل اللفظة راجع لاختلاف آراءهم في معنى اللفظة ذاتها. فالراجح في أصل لفظة التصوف أنها ترجع للفظ الصوف.

يرى "ابن خلدون"** في كتابه "المقدمة"أن لفظ التصوف تشتق من الصوف[2]، حيث عرفت أحوال المنتسبين لهذه الطائفة بلبس الصوف كرمز على الزهد والافتقار إلى الله وترك الدنيا وملذاتها، وفي مقابلها لبس الثياب الفاخر كالحرير الذي يرمز للسلطة وحب الشهوة والتمسك بالدنيا.

* فون هامر (Joseph Vomhammer) (1774- 1856) مستشرق نمساوي، اشتغل بترجمة التراث الأدبي والصوفي للحضارة الإسلامية، من بينها ترجمته " ألف ليلة وليلة" و " إبن الفارض" للغة الألمانية.

[1]- فاطمة داوود، التصوف الإسلامي مفهومه وأصوله، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد 1، 2004، ص 78.

** ابن خلدون (1332- 1406) عالم من علماء العرب والمسلمين، برع في علوم مختلفة كالاقتصاد والفلسفة والتاريخ ويعتبر أول من طبق المنهج العلمي على الظواهر الاجتماعية، ومن أبرز مؤلفاته: " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" والذي مقدمته في حد ذاتها كتاب عرف بـ " مقدمة ابن خلدون".

[2]- علي بن العبيد أحمد الوصيفي، موازين الصوفية في ضوء الكتاب والسنة، مرجع سابق، ص36

جاء في قاموس "لسان العرب" أن اشتقاق لفظة التصوف من الصوف، أي (ص.و.ف) الصوف الخاص بالضأن أو الشاة وما شابه، وقيل صاف عني شره أي عدل وقيل صاف السهم عن الهدف أي عدل عنه ولم يصبه[1].

وجاء في قاموس " المعجم الوسيط" بأن اللفظة من صاف، أي (ص.ا.ف)، ونقول صاف الكبش، أي عليه صوفا، ونقول فلان تصوف، أي صار من الصوفية، والتصوف هو طريقة سلوكية قوامها التقيد والتحلي بالفضائل الراقية لتزكية النفس و السمو بالروح والصوفي هو الفرد الذي يتبع الطريقة[2].

وتقابل لفظة التصوف باللغة الانجليزية لفظة(Islamic mysticism) أو تكتب على الطريقة المعربة (tasawwuf)، جاء في القاموس الالكتروني (etymonline) الذي يهتم بأصل واشتقاق الألفاظ بأن لفظة (Sufism) تنقسم إلى (Sufi) وهو اسم يعني الفرد المنتمي للطريقة الروحانية في الإسلام، وتشتق في اللغة العربية إلى "رجل الصوف" أي (man of wool). أي الرجل الذي يلبس ثياب من الصوف، أما الجزء الثاني من الكلمة (ية أوism–) وهي حروف تزيد على اللفظة لتجعله يدل على نظام أو طريقة أو مذهب، وهي مشتقة من اللاتينية (ismos–) وتعني الانتماء لطريقة أو فكر ما[3].

ومن هذا الطرح، ينبغي علينا أن نحلل معنى ودلالة التصوف في الفكر العربي الإسلامي لنستطيع أن نفهم الصورة الكاملة لتجليات المفهوم المتعددة.

---

[1]- ابن المنظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج11، ط 3، 1994، ص 199–200.

[2]- إبراهيم مذكور وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط 4، 2004، ص 529.

[3]- https://www.etymonline.com/word/Sufism#etymonline_v_38738

المطلب الثاني: تحليل مفهوم التصوف

بعد أن ناقشنا تعدد الأقوال في الأصل اللغوي للفظة التصوف ثم استنتجنا القول الراجح منها، وذكرنا أن تعدد الأقوال في تحديد أصل اللفظ راجع – بعد كون اللفظ دخيل على اللغة والفكر العربي الإسلامي– لتعدد دلالات اللفظ وارتباطه بالبعد الاجتماعي، النفسي والفلسفي .

ويعتبر تحليل مفهوم التصوف مطلب جوهري في دراستنا الفلسفية، حيث يمدنا بالأساس الثاني في الدراسة بعد الاشتقاق اللغوي، من أجل وضع قاعدة متينة للبحث، واخترنا الطريقة التدرجية (أي دراسته على مستويات، من العام إلى الخاص) في تحليل مفهوم التصوف لتعدد وجهات النظر فيه.

بعد أن تفحصنا المنهجيات التي درس بها مفهوم التصوف استنتجنا أنها تدور حول العرض التاريخي لتعريفات المتصوفة المشهورين. وهذا ما أكده الباحث" أبو العلا العفيفي"[1*] في كتابه "التصوف: "الثورة الروحية في الإسلام"، وصعوبة إيجاد تعريف جامع مانع للتصوف تعود لكون التصوف يعبر عن حال ذاتي تتعدد أبعاده[2]، ومنه اخترنا أن ندرس المفهوم بطريقة التدرج معتمدين على مستويات تنتقل من العام إلى الخاص.

* أبو العلا العفيفي (1897– 1966) مؤرخ مصري متخصص بالفلسفة والتصوف الإسلامي، يعتبر باحثا غزير العطاء كتابة وترجمة، من أبرز أعماله: " التصوف: الثورة الروحية في الإسلام".

[2]- أبو العلا العفيفي، التصوف: الثورة الروحية في الإسلام، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2020، ص36.

1-المستوى الاجتماعي

إن مفهوم التصوف مرتبط بحركة اجتماعية ابتدأت بأفراد متفرقة ثم تشكلت في جماعات منظمة ومدارس، وكان ذلك كرد فعل على الواقع الإسلامي المجتمعي؛ الذي ساد فيه القتال والحروب والصراع بين المذاهب والأفكار المختلفة، بالإضافة إلى انتشار البدع وانقسام الأمة إلى فرق متناحرة فيما بينها، مما أدى لسوء الأخلاق والبعد عن رسالة الإسلام الجوهرية.

وعليه، التصوف هنا يتمثل في كونه حركة تصحيحية جاءت رافضة لأوضاع المجتمع المسلم من جهة، وناصحة له -من جهة أخرى- من أجل تنقيته ورده للمبادئ الأساسية الروحية للدين الحنيف، وذلك بالابتعاد والتنزيه عن كل ما يبعد المرء عن طريق الله المستقيم، كحب الشهوات والتمسك بالسلطة والتشبث بزينة الحياة الدنيا والرغبة في لهوها ويقول "ابن خلدون" في كتابه "شفاء السائل" شارحا وضع المجتمع المسلم: "... ثم اختلف الناس وتباينت مراتبهم، وفشا الميل عن الجادة، والخروج عن الاستقامة ونسي الناس أعمال القلوب وأغفلوها، وأقبل الجم الغفير على صلاح الأعمال البدنية والعناية بالمراسم الدينية من غير التفاف إلى الباطن ..."[1]

بعد مناقشتنا لمفهوم التصوف على المستوى الاجتماعي، نجد أنفسنا أمام سؤال يتمثل في: على ماذا أسس الصوفية حركتهم التصحيحية لإرجاع المسلمين للاستقامة؟

[1]- ابن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1996، ص42

2-المستوى الأخلاقي

رغم اختلاف وجهات النظر في مفهوم التصوف وعلى ماذا يقوم، إلا أن هناك أساس واحد يقوم عليه بصورة عامة، ألا وهو الأخلاق.

فالتصوف هو التخلق المستمد من الشريعة الإسلامية، ويبين لنا "ابن القيم الجوزية* في كتابه "مدارج السالكين" قائلا:" اجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق"، فالخلق هو السلوك الذي يعبر على سلامة السريرة عند الخلق، فمن زاد خلقه زاد صفاء قلبه، ومنه ثبت تصوفه[1].

إن غاية رسالة الإسلام رغم اختلاف علومها ومسائلها هو الخلق الحميد، لنضرب مثلا في العقيدة، لا يمكن أن نسلم باجتماع الإيمان بالله الصافي في قلب المرء مع سوء خلقه، كحبه الكبير للشهوات أو ظلمه للعباد وغيرها من الرذائل، وان وجدنا ذلك فسنستنتج حتما أن هناك مشكلة في إيمان العبد بالله، ولهذا يقول رسولنا صلى الله عليه وآله "والذي نفس محمد بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير"[2]، ومعنى قوله أنه لا يجتمع الإيمان الحق مع كره الآخر المسلم[3].

---

* ابن القيم الجوزية (1292- 1350): هو فقيه ومحدث وعالم مسلم مجتهد، يعتبر إمام من أئمة المذهب الحنبلي، من أبرز مؤلفاته: كتاب "الروح"

[1]- أبو الوفا الغنيمي التفتاراني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط3، ص11

* بطرس البستاني (1819- 1883) هو أديب ومؤرخ لبناني، يعتبر أول من ألف قاموسا عربيا عصريا مطولا، واسماه "معجم محيط المحيط".

[2]- حديث شريف، أنس بن مالك، ص5032.

[3]- أبو الوفا الغنيمي التفتاراني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، مرجع سابق، ص14.

والشيء نفسه عندما نأتي لفقه العبادات، فالعبرة الجوهرية في إقامة الصلاة ليس تأديتها بحركات جسدية فقط، فهذا فهم ناقص لرسالة الإسلام، وإنما غاية الصلاة من تكرارها يوميا مع الحرص على المداومة عليها هي شفاء القلوب من الأمراض كالكره، البغض والحسد وغيرها، فإن كانت صلاة المرء لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر، فلا صلاة له، يقول الله تعالى:<< اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون[1]>>.

وهذا هو مفهوم التصوف على المستوى القيمي الأخلاقي، ويلخصه "بطرس البستاني*" في قاموسه "محيط المحيط" بقوله: " إن التصوف أساسه التخلق بالأخلاق الإلهية أي الوقوف عند الآداب الشرعية وقفة متأمل؛ فهو تصفية القلب من الصفات الغريزية ومنازلة الصفات الروحانية من خلال الوفاء لله تعالى وإتباع سنة رسوله صلى الله عليه وآله"[2].

بعد تحليلنا للأساس القيمي الأخلاقي لمفهوم التصوف، نجد أنفسنا أمام تساؤل آخر كيف يمكن للصوفي الظفر بهذه المرتبة من التخلق بالأخلاق الإلهية؟

[1]- العنكبوت:45

[2]- بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1987، ص525.

3-المستوى الديني السني

ارتبط مفهوم التصوف بالزهد في القرنين الأول والثاني الهجريين، ويرجع ذلك لسببين:

السبب الأول يعود لتمسك المتصوفة بتعاليم الإسلام التي حثت على الزهد والعبادة، كقوله تعالى: << زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة[1]>> وفي الآية تفصيل في ملذات الدنيا وتفضيل فيما عند الله عليها[2].

السبب الثاني يرجع إلى اتساع مساحة الدولة الإسلامية من خلال الفتوحات الإسلامية وما نتج عنها من حياة البذخ والترف وانفتاحهم على الثقافات والحضارات الأخرى فكان التصوف بمثابة رد فعل رافض للانجذاب للبذخ الحاصل، والاقتراب من مجالس السياسة والسلطة[3].

ومنه، قد أخذ التصوف طريقة الزهد المبنية على الإحساس الديني العميق والشعور بالضعف الإنساني والخوف الشديد من الله مع التوكل المطلق عليه والخضوع لإرادته، فالزهد في طبيعته ينبغي أن يتعارض مع كل رغبة أنانية مجبول عليها الإنسان وجعل غايته الوحيدة هي الوصول إلى محبة الله من غير مقابل بمعرفته[4].

---

[1]- آل عمران:14.

[2]- عفاف مصباح بلق، التصوف الإسلامي (مفهومه- نشأته وتطوره، مصادره)، مجلة كليات التربية، جامعة الزاوية، العدد 14، يونيو، 2019، ص198.

[3]- المرجع نفسه، ص 198-199

[4]- رينولد نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، تر: أبو العلاء العفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1976، ص69.

ومن هذا الطرح، يعرف "معروف الكرخي"* التصوف بالأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق[1]، ويعني ذلك معرفة حقيقة الشرع ظاهرة وباطنة مع الزهد مما في أيدي الناس، هنا التوكل المطلق على الله شرط أساسي لتحقيق عقيدة التوحيد.

ويرى " أبو حامد الغزالي"** بأن التصوف علم لا يحصل إلا بالذوق ويوضح ذلك في قوله أنه فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه، وبين أن يكون حالك الزهد بعزوف النفس عن الدنيا[2]، وبهذا يضع "الغزالي" أساس التصوف السني الذي يعتمد على الكتاب والسنة كمصدرين أساسيين له، من خلال إتباع قواعد الشرع ظاهرا وباطنا بدون إبداي رأي شخصي فيها ولا نظر عقلي ذاتي.

ينبغي علينا الآن أن نحلل بعض المفاهيم المذكورة في قولة " أبي حامد الغزالي" لكونه خير تمثيل للتصوف السني.

وفي قوله أن التصوف علم، إشارة إلى أن بعد مرحلة انتشار الزهاد الأوائل انتشرت الكتابات حول التصوف باعتباره علم يهتم بالباطن، ولكن ما هي الغاية من ذلك كله؟

---

* معروف الكزخي (750 – 815) هو زاهد وصوفي، مسلم من بغداد، اشتهر بزهده وورعه، حتى خصص "ابن الجوزي" في كتابة "صفة الصفوة" حديثا عن كراماته.

[1]- أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، مطابع مؤسسة، دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، 1989، ص466.

**أبو حامد الغزالي (1058 – 1111) فقيه وأصولي وفيلسوف مسلم، يرجع أصله إلى بلدة طوس الموجودة بإيران حاليا، لقب بحجة الإسلام، ومن أبرز مؤلفاته: كتاب " إحياء علوم الدين"

[2]- ياسر جابر، خالد عبد الله عون، التصوف السني والتصوف الفلسفي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، ص5.

ينبغي لفهم الغاية أن نحدد مبادئ أولية نستطيع أن نبني منها العقيدة الإسلامية وراء تصوف الغزالي.

- **المبدأ الأول:** الإنسان كائن مخلوق

- **المبدأ الثاني:** الخالق هو الله، فالله خلق كل ماهو كائن من بينهم الإنسان.

- **المبدأ الثالث:** الإنسان مميز عن كافة الموجودات بعقله، فهو مكلف.

- **المبدأ الرابع:** (استنتاج من م1 م2 م3): الوجود واحد، وجود الله المطلق الذي لا تجري عليه قوانين الكون، ومن جانب آخر الكون وما فيه (أي ما سوى الله) هو موجود بكلمة من الله، فالله فاعل فيه بأمره.

- **المبدأ الخامس:**(استنتاج من م3): الله بعث رسالة للإنسان من أجل وضع الغاية الحقيقية من وجوده، فوجوده لا معنى له بدون واجب الوجود، والرسالة الأخيرة والخالدة هي الاسلام.

- **المبدأ السادس:** الإنسان لا يستطيع أن يعرف الله، فبرسالة الإسلام عرف الحق بذاته العلية، وعرف بحقيقة الموجودات التي هي خلقه من أمره.

- **المبدأ السابع:** هدف الإنسان السعادة في الدنيا والآخرة

- **المبدأ الثامن:** (استنتاج من م4 م5 م6 م7): لا يمكن للإنسان تحقيق هدفه إلا من خلال خالقه، بإتباع أوامره واجتناب نواهيه والتقرب منه، فالإنسان بدون خالقه أمره عدم، وحاله تعاسة، ونهايته شقاء.

والآن لنواصل تحليل قولة "الغزالي" حول مفهومه للتصوف الذي ادعى بأن التصوف لا يحصل إلا بالذوق، ماذا يقصد الغزالي بالذوق؟ عامة ترتبط لفظة الذوق بحاسة اللسان

فنقول هذا مر وهذا حلو لنعطي حكمنا على الطعم بواسطة حاسة التذوق، أي أنه لا يمكن أن نحكم من الشيء بدون تجربته، وهذا يقودنا بمقصود الغزالي من لفظة الذوق، فالذوق مبدئيا مرتبط بتجربة الشيء، والتجربة هنا ليست مادية بما أننا نحلل مفهوم التصوف، إذن الذوق مرتبط بالتجربة الروحية، وهي ما يطلق عليها التجربة الصوفية، فالعلم إذن حسب الغزالي لا يحصل بالعقل ولا بالحواس، بل بالتجربة الصوفية عبر ما يسمى بالذوق.

ثم يوضح بعد ذلك أنه فرق بين أنك تكون عالما بشروط الزهد وبين أن يكون حالك الزهد، لنحاول أن نركب الأفكار ببعضها، عند الأخذ بالمبدأ الثامن الذي وضعناه مع قول "الغزالي" بالفرق بين المعرفة العقلية وبين التجربة الصوفية، نجد أن السعادة الحقيقية تكمن في الاجتهاد والتقرب للباري، أي بالفعل، لا تكفي المعرفة العقلية المبنية على الإدراك والتذكر للوصول إلى الحقيقة المطلقة، بل تتجلى الحقيقة المطلقة للصوفي الذي سلك الطريق، وهذا ما يقصد بالتجربة الصوفية.

فالسير في الطريق يؤدي بالإنسان إلى الوصول إلى أحوال ومقامات، وهذه الأحوال والمقامات تأتي ثمرة الاجتهاد في العبادة والتقيد بالشريعة ظاهرا وكذلك تنقية القلوب من أمراضها كالتعلق بالدنيا الفانية، وتوجيه النظر إلى الباري سبحانه وتعالى بعلم مع عمل، حتى يفتح الله على العبد في الارتفاع بالمقامات والأحوال ليحصل على علم الحقيقة (الكشف) عن طريق الإشراق والقلب، وهذا ما يقصد به الغزالي بالذوق، فمصدر المعرفة يعبر عنه بالقلب وليس العقل والحواس.

ومنه، يقوم التصوف السني عند "أبي حامد الغزالي" على التركيز على أهمية القلب باعتباره منبع المعرفة الذوقية، ولا يقصد بالقلب العضلة الموجودة داخل جسد الإنسان، بل يقصد بها البصيرة، فمتى تحقق للقلب كمال المعرفة يصل الإنسان به للسعادة الدائمة، ولا يتحقق هذا الكشف إلا عن طريق جمع العبادة الظاهرية الواجب تأديتها في الشرع مع العبادة الباطنية المخصوصة للفرد عند اعتزاله في ذكر ربه ونسيان ما سواه، وبهذا يصل الصوفي إلى الزهد الروحي بعد الزهد الجسدي، ويكون حاله الفناء الذي هو غاية التجربة الصوفية[1].

ومعنى الفناء هنا هو أن يفنى العبد عن الأوصاف الخبيثة ويبقى في أوصافه المحمودة، فيتصف بالخصال الطيبة في طريقه إلى الله حتى تفنى الخصال المذمومة، عن طريق الطاعة والتقرب الدائم إلى الله تعالى بما أمر به وابتعاد عما نهى عنه، فيقوده الفناء بالتحلي بالأخلاق القويمة والتخلي عن الرذائل[2].

ويعرف "القشيري" الفناء في رسالته ويقول: "فمن فنا عن جهله بقي بعلمه، ومن فنا عن شهوته بقي بإنابته، ومن فنا عن رغبته بقي بزهده... [3] "

ولكن نهاية الفناء في التصوف السني تستلزم البقاء، فبعد أن يصل الصوفي لهذا الحال (الذي هو معطى سيكولوجي)، ينبغي أن يفيق من سكرته ويرجع للحياة الأرضية لأداء واجباته كالمأكل والمشرب والمنكح والمرقد، وذلك لتحقيق دور الإنسان الطبيعي الذي كتبه

[1]- زهراء عاشور، التصوف عند الإمام الغزالي، المركز الجامعي العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر، ص62-65.

[2]- مجدي محمد إبراهيم، التصوف السني: حال الفناء بين الجثيد والغزالي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط1، 2002، ص45

[3]- أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، مصدر سابق، ص150.

الله له، ومنه تحقيق العبودية للحق، مخافة أن يقع الإنسان في اختلال علاقته الوجودية بربه عند الأخذ بالفناء وحده[1].

وعليه، فإن التصوف السني يعتمد على التجربة الصوفية؛ التي هي المنزلة الروحية التي يبلغها العبد باتصاله بربه، وغايتها الفناء الذي يستلزم البقاء، ومعنى ذلك أنها ينبغي أن تعتمد على الشرع من خلال تبليغه للحقائق الإلهية إلينا، وأن يعتمد –كما أشرنا في المبادئ– على النظرة الإثنية، فهناك الله واجب الوجود، وهنا موجود قائم بأمره. يقول الغزالي أنه مهما بلغ بالمريد الفناء، يبقى العبد عبدا والرب ربا ولن يصير أحدهما الآخر أبدا[2].

من هذا الطرح نتساءل: لماذا شدد الغزالي على البقاء بعد الفناء في التجربة الصوفية؟

وهنا سنخوض في مفهوم أعمق للتصوف بعد أن تدرجنا في تحليله من المستوى الاجتماعي؛ الذي ارتبط بالأوضاع الاجتماعية، إلى المستوى الأخلاقي؛ الذي وجدنا أن أنه قائم على التخلق الحسن، ومن ثم انتقلنا للمستوى الديني السني؛ الذي قدمنا فيه مفهوم التجربة الصوفية ووجدنا أنها أساس التصوف، وأن ارتباط المفهوم بادئ الأمر بالزهد يعبر عن الرغبة الجدية من المتصوفة في الارتقاء بالأحوال والمقامات حتى يصلوا للفناء روحيا وللكشف معرفيا.

ننتقل الآن في تحليلنا للتصوف الفلسفي الذي اعتمد على النظريات الوجودية الكسمولوجية في تفسيره لحال الفناء.

---

[1]- ياسر جابر، خالد عبد الله عون، التصوف السني والتصوف الفلسفي، مرجع سابق، ص47.

[2]- أبو الوفا الغنيمي التفتاراني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، مرجع سابق، ص179.

4- المستوى الفلسفي

في القرنين السابع والثامن هجري ظهر مفهوم مستحدث للتصوف، مستحدث لأنه غريب على تعاليم الاسلام السني في تفسيراته وتعبيراته للتجربة الصوفية، كما أشرنا سابقا عند "الغزالي"، فإن الشرع (علم المعاملات) والعقيدة (علم المكاشفة) الإسلامية هما المقياس الحقيقي الذي لا يخرج عليه التعبير الصوفي للتجارب الروحية الذاتية، وكل حالة فناء لا تتسق مع هذين الاثنين فهي وهم سيكولوجي، ولا يجدر للصوفي تصديقها، ولهذا شدد "الغزالي" على سبق الفناء بالبقاء وجعله مقياسا للتمسك بالعقيدة الإسلامية.

فالتعبير في التصوف الفلسفي أخذ منحى آخر لقوة التجربة، فالصوفي هنا أشبه بالفنان الذي وجد في اللغة قصورا ومحدودية في التعبير الصادق على تجربته، فكان الحال من هؤلاء المتصوفة أن عبروا على فنائهم بمفاهيم أقرب للفلسفة[1]، فاتخذ التعبير تنظير فلسفي ميتافيزيقي يفسر الفناء أبعد من التصوف السني، فأخذهم الفناء بالاعتقاد بالعقيدة الواحدية (ما في الوجود إلا الله)، والتي تظهر كأنها مستوى أعمق من القول بالثنائية من حيث التحرر من الثقافة السائدة والحدود الموضوعة من طرف الأمة الإسلامية[2].

كغيرهم من المتصوفة، اشتركوا في اتخاذ القلب أو البصيرة مصدرا للوصول إلى الحقيقة المطلقة، وكان العقل بالنسبة إليهم قاصر على الوصول إلى ملك الملوك، لذلك نجد

[1]- نهاد خياطة، دراسة في التجربة الصوفية، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2023، ص109.

[2]- مجدي محمد إبراهيم، التجربة الصوفية: بحث في تحقيق العلاقة بين اعتقاد الثنائية ورؤية الواحدية في تجربة (العارف) الروحانية، بدون دار النشر، القاهرة، 2000، ص8

أن نظرياتهم تكون في الغالب تفسير بعدي لأحوالهم التي كتبوها في شعرهم ونثرهم، فهم لم يبتدئوا رحلتهم بالاعتقاد ثم العمل ليحوزوا بعد ذلك بالمعرفة الاشراقية التي تمكنهم من حدها بالعلم الأولي، ألا وهو العقيدة بل مشوا في مشوارهم الروحي ووثقوا بربهم في المسير، فكان لهم أخذ مختلف على مفهوم الفناء ارتبط بنظريات وجودية شاذة عن الطرح الإسلامي.

فالتصوف الفلسفي هو التصوف الذي يعمد أصحابه إلى مزج أذواقهم الصوفية بأنظارهم العقلية، مستخدمين في التعبير عنها مصطلحات فلسفية استمدوها من مصادر متعددة، ولهذا نجده يتميز بالغموض وصعب للفهم، فهو بين الفلسفة والتصوف، لا هو فلسفة لأنه قائم على الذوق، ولا هو تصوفا خالصا لان تعبيراته لها طابع فلسفي[1].

ومن أجل فهم التصوف الفلسفي وعلاقته بالتجربة الصوفية، سنخص الحديث عن نظرية وحدة الوجود وعلاقتها بالفناء عند الشيخ الأكبر "محيي الدين ابن العربي"*، باعتباره أهم شخصية قالت بوحدة الوجود.

يرى "نهاد خياطة"* في كتابها "دراسة في التجربة الصوفية" أنه يمكن ضبط مفهوم وحدة الوجود من خلال رؤيته من جانبين، جانب نراه على أساس حال ضروري في التجربة الصوفية، والجانب الآخر نرى المفهوم فيه مرتبط بنظرية ميتافيزيقية فلسفية.

[1]– أبو الوفا الغنيمي التفتاراني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، مرجع سابق، ص187.

أما الجانب الأول، نستطيع فهم وحدة الوجود باعتباره حال يمر به المريد في تجربته الصوفية، فإذا قال الصوفي "إني لا أرى شيئا إلا وأرى الله فيه" فهو في حال وحدة الوجود، ويرتبط هذا الحال بالبقاء عكس الفناء[1].

أما الجانب الثاني، فمفهوم وحدة الوجود يتخذ شكل نظرية ميتافيزيقية أو عقيدة تنظر إلى الله والعالم على أنهما كينونة واحدة، فهي عكس القول بأن الحق ليس مثل الخلق، والخلق ليس مثل الحق، بل تنفي الثنائية بين الحق والخلق وتثبت الوجود للحق وحده[2].

ولم تظهر فكرة وحدة الوجود في صورة نظرية كاملة متسقة إلا مع محيي الدين ابن العربي، فهو ممثل المذهب الذي يرى أن الوجود بأسره حقيقة واحدة ليس فيها ثنائية ولا تعدد على الرغم مما يبدو لحواسنا من كثرة في الموجودات في العالم الخارجي، وما نقرره بعقولنا من ثنائية الله والعالم، ولكن ابن العربي يرى أن الحق والخلق وجهان لحقيقة واحدة، وأن هذه القضية بالنسبة إليه قضية بديهية لا تقبل الشك ولا الدليل، ولكنها في الوقت نفسه تقبل التحقيق عن طريق التجربة الصوفية الذي يدرك فيها الصوفي في حال فنائه عن نفسه وعن

* محيي الدين ابن العربي (1164 – 1240) هو أحد أشهر المتصوفة المسلمين، لقبه أتباعه بـ (الشيخ الأكبر)، وهو عالم روحاني وشاعر وفيلسوف، من أهم أعماله كتاب: (فصوص الحكم) و (الفتوحات المكية).

* نهاد خياطة (1928 – 2012) مترجم ومفكر سوري، قدم للمكتبة العربية الكثير من الترجمات البارزة، ومن أعماله كتاب (دراسة في التجربة الروحية).

[1]- نهاد خياطة، دراسة في التجربة الصوفية، مرجع سابق، ص9.

[2]- المرجع نفسه، ص14

الخلق وحدته الذاتية مع الحق، والعقل الغير مؤيد بالكشف والذوق لا يقوى على إدراك هذه الوحدة، ويعبر عن هذه القضية في كتابه فصوص الحكم بقوله[1]:

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا *** وليس خلقا بهذا الوجه فأدركوا

جمع وفرق فإن العين واحدة *** وهي الكثرة لا تبقي ولا تذر.

ونستنتج أن وحدة الوجود عند "ابن العربي" هي حال يمر به الصوفي، وهذا الحال لا يمكن لغير الصوفي أن يدرك الحقيقة الكلية من ورائه إلا بالذوق عند الفناء، وتكمن الحقيقة في أن الحق والخلق وجهان لحقيقة واحدة.

بعد عرضنا بالتحليل على مستويات لمفهوم التصوف ينبغي علينا أن نتساءل مجددا في سبيل سير الدراسة، ماهو موقف العلامة إقبال من مفهوم التصوف؟

[1]- أبو العلا العفيفي، التصوف: الثورة الروحية في الإسلام، مرجع سابق، ص162.

المبحث الثاني: موقف إقبال من التصوف الإسلامي

المطلب الأول: أصل التصوف الإسلامي عند إقبال

حللنا فيما سبق مفهوم التصوف على مستويات، انتقلنا فيها من المستوى الاجتماعي إلى المستوى الأخلاقي، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى المستوى الديني وربطناه بمفهوم التجربة الروحية والذوق، واتخذنا من الغزالي نموذجا لتمثيل التصوف السني الذي بدأ بالزهد، بعد ذلك حللنا المفهوم بشكل أعمق، وتجلى ذلك في المستوى الفلسفي الذي انحدر منه متصوفة ترجموا حال الفناء بألفاظ فلسفية ميتافيزيقية تتنافى مع ثنوية العقيدة الإسلامية، واتخذنا ابن العربي الأندلسي نموذجا لفهم التصوف الفلسفي من خلال مبدأ وحدة الوجود.

والآن ننتقل إلى موقف إقبال من التصوف كمفهوم إسلامي، ونتساءل في هذا المبحث عن أصل التصوف الإسلامي عند محمد إقبال وكيف بنى مفهوم التصوف الخاص به انطلاقا من نقده.

1-ظروف ظهور التصوف

عند قراءة سيرة وحياة محمد إقبال، يتضح لنا أمرين:

الأمر الأول أن بيئته كانت متشبعة بأفكار الصوفية منذ صغره، فوالده كان صوفيا متأثرا بأفكار ابن العربي الأندلسي وجلال الدين الرومي*[1]، وهذا الأخير يعتبره إقبال معلمه الروحي.

والأمر الثاني فهو متعلق بدراسته للفلسفة الغربية في أراضيها، وهذا ما جعله يراجع أفكار بيئته التي تأثر بها.

يرى محمد إقبال في كتابه " تطور الفكر الفلسفي في إيران" أن ظاهرة التصوف ينبغي أن تتخذ لذاتها فكرا ميتافيزيقيا ليكون فهم حيثياتها ممكنا، وإلا لأصبحت هشة مبنية على العاطفة وحدها، بذلك يصبح التحقق من مقولاتها غير ممكن،ا ويحاجج إقبال على هذا الادعاء من خلال مقارنته بين الفكر البراهمي والإيراني، ويعتبر أن البراهمي يتخذ الوحدة الباطنة للأشياء مبدأ له مثل الإيراني، ولكن البراهمي يسعى للكشف عنها في مختلف جوانب التجربة الإنسانية ويحاول أن يصور حضورها فكريا، أما الإيراني فنجده قانع بها كما هي أي لا يسعى للتحقق في أمرها[2].

فالبراهمي يعترف بوجوب وجود اعلي للمعرفة يتجلى من تجربة لأخرى كما الإيراني ولكن الفرق يكمن في قدرة البراهمي على تحليل التجارب ومحاولة الوصول لنظرة كلية لها

* جلال الدين الرومي (1207– 1273) شاعر صوفي وفقيه حنبلي مسلم، عرف بلقب مولانا، ومن أهم أعماله (فيه وما فيه)، (المثنوى).

[2]- محمد إقبال، تطور الفكر الفلسفي في إيران: إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية، تر: محمد الشافعي، محمد جمال الدين، الدار الفنية للنشر والتوزيع، ط1، 1989، ص14.

في مقابل تسليم الإيراني بالخيال والنظرة الجزئية فالبراهمي على عكس الإيراني واع تماما بالحاجة إلى عرض نظريته في شكل مذهب بصياغة عقلية متكاملة[1]

وان كان رأي محمد إقبال منوط على أهل جلدته، إلا أننا نرى أن رسالة إقبال في مجملها جامعة للشعوب التي تدين بالإسلام وتتخذه كفكر سامي.

يرى محمد إقبال أن الفتح العربي الإسلامي لإيران مكن من إحداث تواصلا هاما بين الجانب السامي المتمثل في تعاليم الإسلام، وبين الجانب الآري الذي كان خليطا فكريا من البراهمية، البوذية والزرادشيتة، ويرى أن الفرد الآري على الرغم من لبسه لثياب الإسلام وإتباعه له، إلا أنه حاول أن يحافظ على جوهر عاداته وعقيدته التي تكمن في فكره الآري التقليدي، مما جعل تحوله للإسلام تحولا عرضيا مبنيا على تبني القديم بثياب الجديد[2].

وهذا التحول يرجع إلى تمازج الأفكار، فتحول الفرد من العقيدة الثنوية الزرادشتية (النور والظلام) إلى التوحيد السامي؛ الذي اتخذ بدوره معاني روحانية جديدة تتوافق مع الفلسفة الإغريقية التي تأثر بها العرب والفرس على سواء[3].

وهذا يؤكد لنا أنه لا يمكننا فهم التصوف عند إقبال إلا من خلال إظهار المؤثرات الخارجية التي طورت من هذه الظاهرة الإسلامية وتبيان أصلها الحقيقي.

وفي هذا الأمر، يحاول إقبال دراسة الظروف السياسية، الاجتماعية والعقلية لأواخر القرن الثامن والنصف الثاني للقرن التاسع ميلادي، باعتبارها الفترة الأساسية للحياة الصوفية

[1]- محمد إقبال، تطور الفكر الفلسفي في إيران: إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية، مصدر سابق، ص14.

[2]- المصدر نفسه، ص31.

[3]- محمد إقبال، تطور الفكر الفلسفي في إيران: إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية، مصدر سابق، ص33.

الإسلامية، من أجل الرد على المستشرقين الذين يعتبرون أن الإسلام ليس من أصل التصوف، وتتمثل هذه الظروف في[1]:

- ✓ غياب الاستقرار السياسي الذي أدى لانتشار الروح الانعزالية بين المسلمين.
- ✓ فقدان المسلمين للطابع السامي في فكرهم، وهذا أدى إلى ظهور حركة الزهاد الذين انجذبوا لنظرية وحدة الوجود التي تنطوي على صبغة آرية
- ✓ تفشي الشك والعقلانية بين العلماء والفقهاء المسلمين، و التي أوجبت حسب القشيري إلى البحث عن مصدر معرفي أعلى من العقل للاحتكام به.
- ✓ ظهور التقوى الخالي من العاطفة في المذاهب الفقهية الإسلامية الكبرى كالشافعية والحنبلية والمالكية .
- ✓ ضعف الغيرة الدينية، وذلك بسبب ميل العصر العباسي الأول إلى العقلانية والبذخ مما أدى إلى حدوث ضعف أخلاقي ولامبالاة بالحياة الدينية.
- ✓ وجود المسيحية كنموذج حياة قابل للتطبيق، وذلك من خلال الإعجاب بنمط حياة الراهب المسيحي (لا فكره) في انصرافه التام عن الدنيا.

هذه هي البيئة الذي نشأ فيها التصوف الإسلامي عن طريق التأثير المشترك للظروف السابقة.

وهذا ما أدى حسب إقبال إلى تأثر العقلية الإسلامية سلبا بالعقول الأعجمية التي لا تتفق مع مبادئ الاسلام، ويظهر ذلك في ظهور محاولات مستمرة من أجل الوصول إلى

[1]- محمد إقبال، تطور الفكر الفلسفي في إيران: إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية، مصدر سابق ، ص82-84.

صياغة جديدة للإسلام معتمدين على الفكر البراهمي والبوذي، وكذلك الفكر الغنوضي المسيحي المختلط بالفلسفة الإغريقية، مبررين نتائجهم بالقرآن الكريم بغية النجاة[1].

حيث أن الصيغة السامية للنجاة تتطلب تغيير الإرادة الذاتية للفرد، فالإرادة حسب الفكر السامي هي جوهر الروح الإنسانية، بينما ترى تعاليم الفيدانتا الهندية زوال الألم والنجاة يتطلب تغيير مفاهيمنا حول الكون، فالفهم حسب الفكر الآري هو جوهر الروح الإنسانية ولكن الصوفي يرى أن الإرادة والفهم هما صورتان للشعور، فيتطلب النجاة إذن تغيير شعورنا من أجل الوصول إلى المحبة الرفيعة[2].

ومنه، يرى إقبال ان التصوف يحاول الجمع بين قواعد سلوك الدين السامي، وبين النظام الفكري الميتافيزيقي للفيدانتا الهندية تحت مبدأ المحبة العليا[3].

ومن ناحية أخرى، يناقش إقبال تأثير الفناء البوذي (النيرفانا) على التصوف الإسلامي، بحيث يتطلع الأخير لبناء نسق ميتافيزيقي في ضوء هذه الفكرة، ومن جهة أخرى يعزز ارتباطه بالإسلام من خلال إيجاد تبريرات قرآنية تعطي الضوء الأخضر لقبول التصور الكوني للفكر البوذي[4].

[1]- محمد إقبال، تطور الفكر الفلسفي في إيران: إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية، مصدر سابق، ص86.

[2]- المصدر نفسه، ص86.

[3]- المصدر نفسه، ص87.

[4]- المصدر نفسه، ص87.

إذن، فالتصوف يعتمد على التوفيق بين الفكر الآري والفكر السامي، طابعا إياها بطابعه الفردي الخاص، وهو طابع حسب إقبال يميل لكفة الفكر الآري أكثر منه السامي[1].

2-تجلي التصوف في القرآن

بعد أن عرض محمد إقبال بالتحليل الظروف المتدهورة التي نشأ فيها التصوف، والذي نتج عنه تداخل الأخير في فلسفات أخرى غريبة عن الإسلام كالبوذية والهندوسية والفلسفة اليونانية، مما أدى لاغتراب التصوف من المبادئ المبينة على القرءان والسنة. وبهذا أخطأ المستشرقين حسب إقبال برد أصل التصوف لهذه الفلسفات والعقائد، وكان ذلك بسبب غياب التفسير القرآني الذي يبين مفاهيم التصوف الحق.

ولهذا يريد إقبال أن يقوم بالمهمة ويبين أصل التصوف من القرءان الكريم، ويوضح أن عجز العرب عن ربط التصوف بالقرآن وخلق مذهب عملي متكامل راجع هو كذلك لظروف لا تشجع على العملية الفكرية الدينية، ولو كانت الظروف مناسبة لتحقق مذهب متميز يستطيع أن يغير من الفكر الضبابي للمسلمين[2].

يبدأ إقبال بتعريف المسلم انطلاقا من القرءان الكريم باعتباره هدف الدراسة، وجاء قول الله في تعريفه << الذين يؤمنون بالغيب، ومما رزقناهم ينفقون[3]>> ثم يتساءل حول ماهية الغيب في الآية وماهو مجاله، ويجيب القرآن بأن الغيب يوجد في روحك << وفي

[1]- محمد إقبال، تطور الفكر الفلسفي في إيران: إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية، مصدر سابق ، ص87.

[2]- المصدر نفسه، ص87.

[3]- البقرة:2

الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون[1]>>، وبالإضافة إلى أن ماهية الغيب يوضحها القرآن بأنها نور خالص <<الله نور السماوات والأرض[2]>>[3].

ومن هنا يستنتج محمد إقبال أن هناك نورين، نور أولي أدنى يمس كل الأرواح ويظهر في قوله سبحانه<< قل الروح من أمر ربي>>[4]، وهناك نور أرقى يمس الأرواح التي تسلك طريق الله من خلال التجربة الصوفية لتتصل بالمبدأ النهائي، ويحدده إقبال في أربع مراحل[5]:

- ✓ الإيمان بالغيب بقوله << الذين يؤمنون بالغيب[6]>> وهو تحقيق الإسلام في الفرد
- ✓ البحث عن الغيب، حيث تصحو الأرواح عند التأمل في خلق الله<< أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت[7]>>
- ✓ علم الغيب، ويتحصل بالنظر في أرواحنا <<وفي أنفسكم أفلا تبصرون[8]>>

[1]- الذاريات:20-21

[2]- النور:35

[3]- محمد إقبال، تطور الفكر الفلسفي في إيران: إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية، مصدر سابق ، ص88.

[4]- الإسراء:87

[5]- محمد إقبال، تطور الفكر الفلسفي في إيران: إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية، مصدر سابق، ص89.

[6]- البقرة: 3

[7]- الغاشية: 17-19.

[8]- الذاريات: 21.

- ✓ التحقق، ويمثل أعلى درجات التصوف، وينتج عن الممارسة الدائمة للعدل والإحسان كقوله <<إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تتذكرون[1]>>.

المطلب الثاني: التصوف الإقبالي بين النقد والبناء

بعد أن عرضنا رؤية محمد إقبال لأصل التصوف، استنتجنا أنه يرفض صراحة إرجاع أصل التصوف إلى مصادر خارجة عن الإسلام، وحاجج على عكس ما قال به المستشرقون ووصل إلى نتيجة مفادها أن هناك مؤثرات خارجية وظروف داخلية هي التي ساهمت في تبلور التصوف، ثم أثبت محمد إقبال إمكانية ربط التجربة الروحية التي هي أساس التصوف الإسلامي بالقرآن الكريم.

ولا يمكن أن نفهم مفهوم التصوف عند محمد إقبال إلا إذا درسناه على جانبين، جانب نقدي يقدم فيه أفكاره حول الفلسفات والعقائد التي تمكنت من إعلان حضورها تحت غطاء التصوف الإسلامي ويقابلها بالرفض، وجانب بنائي يظهر بعد تصفية الأفكار الشاذة التي لا تخدم جوهر الإسلام كما يرى إقبال من خلال عدسة القرءان الكريم وشخصية النبي الأعظم (صلى الله عليه وسلم).

[1]- النحل: 92.

1- النقد: محمد إقبال والفناء

يتخذ محمد إقبال مقياسا واضحا له في تحديد الشائب من الصالح فيما يتعلق بالفكر والممارسة الصوفية، ألا وهو القرآن الكريم؛ الذي يرى أنه لم يأخذ حقه من الدراسة الجادة بين العلماء، الفلاسفة والمتكلمين المسلمين، ويرجع ذلك بسبب انغماسهم في أفكار غيرهم، فكان التعاطي مع كتاب الله مجرد انعكاس لأفكار ومناهج لا تمت بالإسلام صلة.

وأشرنا فيما سبق أن حال الفناء هي أسمى حال يصل إليها المريد في سيره إلى الله وهي المراد الاسمي للتجربة الصوفية، وأشرنا إلى أن التعبير عن الفناء خرج من مبادئ العقيدة الإسلامية إلى تفسيره بمفاهيم فلسفية أعجمية، ورأينا كيف أن الغزالي يرفض الفناء بدون بقاء، لان رجوع الصوفي لعبوديته لربه هي أسمى ما يمكن تحقيق عقيدة التوحيد به.

ونجد أن محمد إقبال يشارك الرأي جزئيا مع الغزالي، إلا أنه يرفض الفناء كليا، والفناء هنا يقصد به انحلال وحلول واتحاد الشخصية الفردية للإنسان بربه حتى يصبح الإنسان سكرانا متواكلا رافضا للرجوع لذاته، وهذا حسب محمد إقبال كان نتيجة عدم الاستقرار السياسي والأمني، وكثرة النزاعات وتمازج الأفكار عن طريق اتصال الحضارات ببعضها البعض.

فجوهر الإسلام حسب إقبال يدعوا لأعمار الأرض والعمل والاجتهاد والجد وتقوية المسلم، أما الخنوع والذلة وترك الدنيا لأسباب روحانية صوفية هو حسب إقبال فهم مخادع اشتركت فيه كل الأمم التي تجرعت الآلام في تاريخها، فبدل أن يعمل الفرد ويوفق بينها وبين أمور عبادته وقلبه، يركن الإنسان إلى هامش التاريخ، فيصبح باسم الإسلام عديم النفع وعامر باللامبالاة.

وعليه، نجد إقبال ينقد التصوف المبني على الفلسفة الإغريقية، والتصوف المبني على وحدة الوجود وكل أنواعه، لكونها مبينيه على إفناء الذات المسلمة.

1.أ نقد الفلسفة اليونانية

يبدأ محمد إقبال في كتابه "تجديد الفكر الديني" بتساؤل مهم حول إمكانية تطبيق منهج الفلسفة –القائم على العقل المحض– على الدين، فالفلسفة في طبيعتها تقوم على فضاء واسع للتساؤل الحر، ووظيفتها التحقق من المبادئ الأولية للفكر الإنساني، وهذا ما يؤدي حسب إقبال إلى الاعتراف في النهاية بعجز العقل للوصول إلى الحقيقة المطلقة[1].

والإيمان ـ من ناحية أخرى ـ يمثل جوهر الدين، ويكون محله القلب أو البصيرة، ويرى إقبال أن هذا لا يعني تجاهل المعطيات الفكرية التي يقدمها العقل، فهي لازمة في بناء الإيمان، لأن الدين ينبغي أن يشكل الحياة الداخلية والخارجية للفرد على أساس عقلي ميتافيزيقي صلب ومستقر[2].

وهذا الأخذ الإقبالي ضروري لإرساء معالم نقده للفكر بدون أن يكون النقد هداما، أي النقد من أجل النقد، فالتوفيق بين القوة العقلية والقوة الحدسية في الحياة الدينية أمر شدد إقبال على أهمية، ويرجع ذلك لجوهر الاسلام ذاته.

[1]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، تر: محمد يوسف، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 2011، ص13.
[2]- المصدر نفسه، ص15.

ثم يستمر إقبال في مناقشة تأثير الفلسفة اليونانية على الفكر الإسلامي، ويعتبر أن الفلسفة اليونانية تعتبر قوة ثقافية كبرى في تاريخ الإسلام، فقد تأثر بطرقها مختلف مدارس المتكلمين والمفكرين الذين يلقبون بفلاسفة الإسلام[1].

ولكن إن أمعنا النظر، فسنجد أن هذا التأثر الذي كانت غايته توسيع آفاق النظر العقلي عند الفلاسفة والمتكلمين المسلمين، أدى بشكل مؤسف لتجاوز الفهم القرآني الأصيل[2].

ثم يحاجج إقبال على هذا الإدعاء بمناقشة نماذج من الفلسفة اليونانية، ويبتدئ بسقراط(399 ق.م-470 ق.م) الذي يرى أن الدراسة الحقة للإنسان هي الإنسان نفسه، وأهمل بذلك دراسة النبات والنجوم والحيوان التي تمثل مظاهر الحياة الواقعية، وهذه النظرة حسب إقبال منافية للروح القرآنية التي ترى حتى في النحلة موضوع للإلهام الإلهي، كقوله تعالى << وأوحي ربك إلى النحل أني اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون[3]>>، فالقرآن الكريم يدعوا إلى النظر والتأمل في كافة جوانب مظاهر الحياة من النملة إلى تعاقب الليل والنهار[4].

[1]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص17.

[2]-.المصدر نفسه، ص17.

[3]- النحل: 68.

[4]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص17.

ثم انتقل بعد ذلك لتلميذه أفلاطون(347 ق.م–427 ق.م)، الذي يعتبر الحط من قيمة الإحساس الحسي أساس فلسفته المعرفية لكونه قائم على الظن، ويؤكد إقبال مخالفة هذا الطرح للنظرة القرآنية التي تعتبر السمع والبصر من أعظم النعم الإلهية<< وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون[1] >> لكونهم مسؤولون على ما يقترفونه في الحياة الدنيا من أعمال لقوله تعالى<<ولا تقف ما ليس ل كبه علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا[2]>>، وهذا يعبر عن الروح العملية التي يبعثها القرءان في نفوس المسلمين[3].

وكان لأفلاطون أثر سلبي من هذا المنطلق على تصوف المسلمين وآدابهم، ولذلك يحذر إقبال من فكره وفلسفته التي دفعت الفكر الإسلامي بشكل عام والتصوف الإسلامي بشكل خاص إلى الرضوخ والخنوع ثم العبودية، وركز إقبال على أفلاطون دون الفلاسفة باعتباره رائد الفلسفة المثالية التي تقوم على الفناء، وترى في البقاء قيمة عرضية، فتغفل بذلك المادة لصالح الصورة، وتنكر الحياة وتجعل جوهرها الموت، فعزلت المسلمين عن واقعهم المادي الذي يدعو القرآن فيه بضرورة التعمير والإنتاج[4]، ولهذا خصص إقبال قصيدة متكاملة في ديوانه "الأسرار والرموز" ينقد فيها شطحات أفلاطون الواهية بقوله[5]:

راهب الماضين أفلاط الحكيم *** من فريق الضأن في الدهر القديم

طرفه في ظلمة المعقول ضل *** في حزون الكون قد أعيا وكل

---

[1]- النحل: 78.

[2]– الإسراء: 36.

[3]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص18.

[4]- حسن حنفي، محمد إقبال: فيلسوف الذاتية، دار المدارس الإسلامي، لبنان، ط1، 2009، ص196.

[5]- محمد إقبال، الأسرار والرموز، تر: عبد الوهاب غرام، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2014، ص37.

فكره في غير محسوس فتن *** ضد عن كف وعين وأذن

قال: في الموت بداسر الحياة *** في خمود الشمع يزداد سناه

حكمه في فكرنا جد عظيم *** يمحق الدنيا له جام منيم

هو شاة في لباس الأدمي *** وهو الصوفي ذو يأس قوي

هلك أقوام بهذا الثمل

حرموا بالنوم ذوق العمل

وعليه، يرى إقبال أن دارسو القرآن من المسلمين الأوائل استحوذت عليهم هذه الفلسفة وقرؤوا القرآن على ضوء الفكر اليوناني، وبعد التأمل نجد أن روحه مناقضة تماما لهذا الفكر.

ولم يكتفي إقبال بالفلاسفة اليونان، بل انتقل لنقد كل من تبعهم من مفكري الإسلام أمثال ابن رشد(1126–1198)؛ الذي دافع عن الفكر اليوناني ضد المعترضين عليه، وبتأثره بمقولات أرسطو تبنى مذهب خلود العقل الفعال؛ الذي هو جوهر بسيط محيط بالأشياء، خلقه الله من نور فعله، فهو جوهر الجواهر، ويرى إقبال أنه مذهب مخالف للنظرة القرآنية لقيمة الذات الإنسانية ومصيرها[1].

فالغرض المباشر للقرآن حسب إقبال هو إيقاظ الشعور الإنساني لإدراك الطبيعة التي تعد دليلا على خالقها، فالقرآن ليس موجه للتجربة الداخلية الروحية فقط، بل إن للاتجاه التجريبي العملي في القرآن الكريم شأن عظيم في إدراك حقيقة الألوهية، وهذا ما غفل عنه

[1]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص19.

المسلمين الذين رفضوا عالم الأشياء المرئية باعتباره عديم القيمة في البحث عن الحقيقة المطلقة[1].

1-ب نقد عقيدة وحدة الوجود

تظهر عقيدة وحدة الوجود في التاريخ الإسلامي على أساس تعبير فلسفي وجودي لحال الفناء الذي يصل إليها الصوفي في تجربته الروحية، ووحدة الوجود كما أشرنا سابقا ترتبط بنظرة كونية تنزع مقياس الغيرية بين واجب الوجود والموجود، وتوحدهم في كل واحد، فلا يوجد إلا الله، والله هو الوجود فقط، ومنه الصوفي في حال الفناء يتحد وينحل في ذات الله ليصبح واحد باقيا لا متناهيا، وبذلك يفنى عن الحياة الدنيا وظواهرها.

وبهذا ينقد محمد إقبال هذه العقيدة الأعجمية التي لا ترجع للإسلام، وكان لسان الغيب حافظ الشيرازي(725هـ-792هـ) أول من يتعرض له إقبال بالنقد في ديوانه "أسرار خودي"، فحط من قيمة فكره وتصوف وطريقته، وحذر من إتباعها ونهى الناس عنها، لكونها تتخذ هدفها السكر كحالة دائمة يتجرعها الصوفي الحق الذي عرف حقيقة العشق الإلهي، وبهذا يفنى ويزول عن ذاته في ذات ربه، وكذلك نقد الشيخ الاكبر محيي الدين ابن العربي لاتخاذه وحدة الوجود عقيدة مفسرة للتوحيد وقال فيه أن آراءه غير إسلامية[2].

---

[1]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص35.

[2]- محمد الساعدي، محمد إقبال اللاهوري، عبقرية الفكر والإصلاح، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران، إيران، ط1، 2014، ص138.

غضب الصوفية غضبا شديدا عند نقد إقبال لشيخهم الحافظ، ووضح مقصوده في رسالة إلى الشيخ حسن نظامي البهلوي مفادها[1]:

- ✓ ارتباط محمد إقبال بالثقافة الصوفية منذ نشأته، ودراسته في أوروبا عمقت من ميله للتصوف.
- ✓ جعل محمد إقبال مقياسه الأسمى هو القرآن الكريم، وبهذا عندما اجتهد في دراسته للتاريخ الإسلامي بتمعن مع تدبر القرآن الكريم، وصل إلى نتيجة أن التصوف الإسلامي المنتشر في بلادنا أعجمي.
- ✓ تخلي محمد إقبال عما نشأ عليه رغم ارتباطه العاطفي به، وهذا يبين شجاعته وموضوعيته وصدقه في البحث عن الحقيقة
- ✓ انتشار التصوف الأعجمي كان نتيجة لظروف قاهرة حلت بأمة الاسلام.
- ✓ أخذ الحافظ السكر كمفهوم إسلامي صوفي حق يخالف قوانين الإسلام ومبادئ الحياة، فالإسلام في جوهره يدعو للصحوة والنشاط، وهذا ما يبينه لنا تاريخنا الإسلامي في القرون الأولى الشريفة ابتداء من النبي الأعظم (صلى الله عليه وسلم) وصحابته؛ الذين يعتبرون التجسيد المثالي للحياة الإسلامية.
- ✓ تفسير الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي مفهوم التوحيد بوحدة الوجود انطلاقا من تأويله للقرآن قول باطل، وهذا لا ينقص من قدر الشيخ ولا من إسلامه في شيء.

[1]- محمد إقبال، الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص12.

وهذه أهم النقاط التي ناقشها محمد إقبال في رده عن المعترضين لنقده للحافظ والشيخ الأكبر، وكلها تدور حول النقطة القائلة أن القرآن يشجع على البقاء، ومنه كل فكر يدعو للفناء فهو باطل، فالصوفية وفكرة وحدة الوجود جعلت المسلمين يهملون الذاتية والغيرية بين الرب وخلقه، مما أدى بهم للخلط بين مفهوم التوحيد ووحدة الوجود، فالتوحيد مفهوم ديني ويقابله الشرك، بينما وحدة الوجود مفهوم فلسفي ويقابله الكثرة، فالكثرة التي نراها في الكون حسب إقبال ماهي إلا خلق الخالق، وان كانت من وجهة نظر فلسفية هي ذات واحدة، فالذات التي تستحق العبادة والشكر هي ذات الله وحده خالق ما سواه، أي أن الله لا يسري في نظام الكون سريانا، إنما هو خالق هذا الكون، وأن ربوبيته هي التي تتضمن بقاء النظام الكوني[1].

1-ج تعريف التصوف السلبي

بعد التفصيل في نقد إقبال للتصوف الشائع في دول الإسلام، واعتباره أعجميا لا يتماشى مع العقيدة الحقة التي تفرق بين واجب الوجود والموجودات، وكذلك لا تتماشى مع روح القرآن المجيد الذي يدعو للتوفيق بين التجربة الجوانية الروحية وبين التجربة العملية الواقعية لتحقيق الفرد المسلم المتكامل.

فالتصوف السلبي هو كل ما يؤدي بالإنسان بالفناء الذي ما بعده بقاء، فيؤدي بالفرد للانعزال عن الحياة الواقعية، مما ينتج عنه مجتمعا انهزاميا متواكلا لا يدرك حقيقة ذاته، فهو في فعله لهذا يظن أنه يحقق العبودية لله وأنه صوفي متميز، وأنه فوق الحياة، كأنه

[1]- محمد الساعدي، محمد إقبال اللاهوري، عبقرية الفكر والإصلاح، مرجع سابق، ص149-154.

يشعر أنه والموت واحد، وذلك في اعتقاده أنه الغاية الأساسية له عند فناءه في ذات الله ونسيان دوره الجوهري المتمثل في إعمار الأرض.

ويسأل إقبال شيخه الرومي في ديوانه "جناح جبريل" ويقول: ماذا يأمل الاسلام من سلوك الصوفي، الرضا بالفقر أم طيش الملوك أفضل؟ ويجيب الرومي بأن جنة الاسلام جعلت في ظل السيف، وأن الجهاد سنامه، وليس ما يطلبه الرهبان والصوفية من أمن الكهوف[1].

ومنه نستنتج أن التصوف الذي يرفضه إقبال هو تصوف الانسحاب من المجتمع والعزلة عنه، تصوف داع إلى ترك الدنيا واعتبار الحياة والكون غير حقيقيين، ومشجع على تطوير موقف هروبي من الحياة، ومؤمن بمثل مدمرة داعية لنكران الذات وإفنائها، وهو ما يتنافى كليا مع العقيدة الإسلامية، ويتناقض مع تعاليم الاسلام، ويختلف عن سيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومقاصد رسالته[2].

وفي هذا الصدد، يلخص إقبال التصوف السلبي في قصيدة من ديوانه "هدية الحجاز" ويقول[3]:

[1]– حسن حنفي، محمد إقبال: فيلسوف الذاتية، مرجع سابق، ص199.

[2]– ميلود خلق الله، موقف إقبال من التصوف، مجلة معارف، قسم2، السنة السابعة، العدد: 2012/12/13، ص201.

[3]– محمد إقبال، ديوان محمد إقبال، إعداد: عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ج 2، ط3، 2007، ص532.

أنا في حالة الفقر محسود الغنى

لأن فقري ذو غيرة

الحذر من ذلك الفقر والتصوف

الذي علم المسلمين الذل والخضوع.

2- البناء: محمد إقبال والبقاء

بعد أن حدد إقبال مقياس تحديد أصالة التصوف الإسلامي ألا وهو القرآن الكريم، ومن ثم ربط معانيه التي تجمع بين التجربة العملية والتجربة الروحية في كل متكامل، ولا تقدم واحدة عن الأخرى، انتقد بعد ذلك كل ما يخالف هذا المقياس، وجعله تصوفا سلبيا يعتمد على فكرة الرهبنة التي تناقض روح الإسلام، التي تدعو لإعمار الأرض والمشي في مناكبها.

ومن هذا النقد، بنى محمد إقبال مفهومه للتصوف بما يناسب العقيدة والشريعة الإسلامية من جهة، وبما يوافق حياة النبي الأعظم (صلى الله عليه وسلم) من جهة أخرى، وجعل أساسه البقاء وإثبات الذات.

2- أ <u>عناصر الحياة الدينية</u>

ينطلق محمد إقبال في مناقشة محاضرته(هل الدين أمر ممكنا عقليا؟) من خلال كتابه "تجديد الفكر الديني في الإسلام" بتبيين عناصر الحياة الدينية، وقسمها إلى ثلاث مراحل[1]:

[1]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص303 – 304.

- ✓ المرحلة الأولى: الإيمان: تبدو الحياة الدينية في هذه المرحلة كشكل من أشكال النظام التي ينبغي على الفرد والجماعة قبولها بدون شروط، أي بدون إبداي رأي عقلي فيها محاولا فهم معنى الإيمان وغايته، فقط يتقبله كما هو، ويرى إقبال أن هذه المرحلة لها أثر كبير في تحديد المسار التاريخي والحضاري للشعوب، على الرغم من خلو أثرها على الحياة الفردية.
- ✓ المرحلة الثانية: الفكر: وتبدو الحياة الدينية في هذه المرحلة أنها تبحث على الأساس الميتافيزيقي للإيمان، وتحاول أن تركب نظرة متسقة منطقيا في رؤيتها للكون والله وعلاقتهم ببعضهم البعض.
- ✓ المرحلة الثالثة: الكشف: أما في هذه المرحلة، فيحل علم النفس مكان الميتافيزيقا، وتظهر عند محاولة الإنسان في الاتصال المباشر بالحقيقة المطلقة، وبها يكتسب الفرد شخصية حرة، لا بالتحلل من قيود الشريعة، بل باكتشاف الحقيقة التي فهمها الفرد من الشريعة عن طريق الذوق.

ونجد أن محمد إقبال يستعمل لفظة الدين كلفظة بديلة عن التصوف لسوء السمعة الذي اتخذه المفهوم وارتباطه بالسلبية، فالتصوف إذن يمثل عند إقبال أعلى المنازل لاعتماده على الكشف والحدس اللذان يعتبران حسب رأيه أساس التجربة الدينية الحقيقية.

وفي هذا يرى إقبال أن قمة الحياة الدينية هي الكشف عن الذات بوصفها فردا أكثر عمقا من النفس القابلة للوصف بالتصورات الذهنية، والذات عندما تتصل بالحقيقة الإلهية فإنها تكشف تفردها ومرتبتها الميتافيزيقية[1].

2-ب تعريف التصوف الايجابي

ومن الطرح السابق، نستنتج أن التصوف الذي دعا إليه محمد إقبال يعتمد على تقبل الحياة ونبذ رفضها بالمجمل، فالتصوف الإقبالي يقوم على العمل والاجتهاد ورفض العزلة والتواكل، ويحاول أن يسمو بالذات بإثباتها وتركها للقنوع والاستسلام[2].

فالتصوف الايجابي هو التصوف الذي يلتزم بمبادئ الكتاب والسنة ويعمل في إطارهما. فقد آمن به إقبال وأولاه عناية كبيرة، ويرى أنه العلاج الأنفع للإنسانية مما أصابها من أمراض بسبب النزعة الروحانية السلبية الطاغية من جهة، وبسبب النزعة المادية التي أفرغت الإنسان بجعله مادة لا غاية لها من جهة أخرى، ومن هنا نستنتج أن إقبال في مفهومه للتصوف الحق الايجابي ربط بين التجربة الروحية وبين التجربة الواقعية، فنجده اعتنى بالعقل، ولكنه رأى بالحدس كعقل أعلى مرتبة، بهذا، نجد أن المفهوم الإقبالي مفهوم معتدل يعبر عن صدق غايته في تكوين الإنسان المسلم المتكامل انطلاقا من إثبات ذاته[3].

---

[1]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص308.

[2]- عباس محمود العقاد، دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2014، ص155.

[3]- مخلوق حمودي، التصوف عند محمد إقبال، مجلة المعيار، العدد 76، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، 2010، ص224.

عرجنا في تحليلنا لموقف إقبال من التصوف وأنواعه على مفهوم الذات بكثرة، وهذا يستدعي منا أن نتساءل حول فلسفة الذات الإقبالية وغايتها.

الفصل الثاني: فلسفة الذات

عند محمد إقبال

المبحث الأول: مفهوم "خودي "

المطلب الأول: تعريف إقبال لـ "خودي

المطلب الثاني: طبيعة خودي

المبحث الثاني: إثبات "خوذي"

المطلب الأول: مراحل تربية "خودي"

الفصل الثاني: فلسفة الذات عند محمد إقبال

المبحث الأول: مفهوم "خودي "

كان إقبال في فترة دراسته في إنكلترا واعيا بالواقع الكئيب التي تمر به الأمة الإسلامية، وكان لإنكلترا دورا كبيرا في ذلك، من خلال سياساتها المستبدة التي وضعت لإضعاف الأمم الإسلامية اقتصاديا، سياسيا وثقافيا لتكسير روح الإسلام. إلا أن إقبال تحسر وبعمق لوضع المسلمين، وفي نفس الوقت كان واعيا بمهمته في تحرير المسلمين من الاستعمار الخارجي الذي أخذ منهم قوتهم و هويتهم[1].

واقتنع إقبال أنه لا يمكن تحرير المسلمين إلا بالفكر، وذلك برفض الفلسفات التي تزيد الطين بلة ولا تبقي على هويتهم و لا تذر، وهي الفلسفات التي تقوم على فناء الذات وبهذا نقد الأفكار الهندوسية المستمدة من الفيدانتا و الصوفية التي ترى بعقيدة وحدة الوجود وعلى الفلسفات الهلينية و الأفلاطونية المحدثة التي تقول بأن حقيقة العالم وهم و أن أمره لا يهم[2].

مغزى هذه الأفكار أنها تشجع الإنسان على الهروب من صعوبات الحياة في عوض مواجهتهم إياها، و ترتكز على فناء الذات رغبة في الاتحاد مع الله، وهذا ما أدى المسلمين للتكيف مع أوضاعهم السياسية و الاجتماعية بدون رد فعل يذكر.

---

[1]- بيبي مرزاق، مفهوم الذات عند محمد إقبال، مجلة دراسات، العدد1، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة، الجزائر، 2010، ص135.

[2]– المرجع نفسه، ص137.

وكان "جلال الدين الرومي" بمثابة معلم و مساعد لإقبال في إيجاد المفهوم الدقيق الذي بإمكانه أن يبني عليه فلسفته؛ التي تهدف لحل مشكلات المسلمين من كافة النواحي بهذا يفتتح ديوانه أسرار خودي بتعظيم شأنه من خلال الأبيات التالية[1]:

رأيت الشيخ بالمصباح يسعى*** له في ناحية مجال
يقول: مللت أنعاما وبهما *** وإنسانا أريد، فهل أنال
برمت برفقة خارت قواها *** برستم أو بحيدر اندمال
فقلنا: ذا محال، قد بحثنا *** فقال: ومنيتي هذا المحال

ويقوم هذا الحل حسب إقبال على إثبات ذات المسلم لا نفيها. بهذا بنى إقبال فلسفة مبدعة قائمة على إثبات الذات تحت لفظ "خودي".

و نحاول من خلال هذا المبحث أن نحلل طبيعة خودي من خلال أشعاره و كتاباته التي تعتبر مركز فلسفة إقبال، ثم نعرض المؤثرات التي يمكن أن تضعف أو تقوي الـ "خودي"، لننتهي بعد ذلك إلى مراحل تربية خودي للوصول إلى أعلى مرحلة و هي إنابة الله في الأرض.

[1]– محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص23.

المطلب الأول: تعريف إقبال لـ "خودي"

1. لفظ خودي و مرادفاتها

- اختيار خودي

وجد "محمد إقبال" صعوبة بالغة في إيجاد كلمة مناسبة تعبر عن روح فلسفته التي تدعو لإثبات الذات، وكانت كلمة "خودي" تعبر لحد ما عما يريد أن يعبر عنه، ولكن إقبال لقي نقدا عنيفا عند اختياره لهذه الكلمة، ويرجع ذلك لازدواجية معناها في اللغة الأردية، التي تعتبر كمرادفة للتكبر و الأنانية[1].

أدرك "محمد إقبال" رد الفعل عليه خاصة و أن المقصود من اللفظ يعاكس تماما ما يريد الفيلسوف إبلاغه لأمة الإسلام، كان يبحث عن كلمة بدون لون ولا خلفية أخلاقية تعبر عن سمو الذات، ولم يجد كلمة تعبر أكثر من "خودي"، ليعلم القراء أن لفظة خودي لا تستعمل هنا بمعنى الأثرة والأنانية، كما تستعمل في اللغة الأردية، إنما معناها الإحساس بالنفس أو تعيين الذات[2].

- مرادفات خودي

في الترجمات الانجليزية و العربية أخذت كلمة خودي عدة مرادفات منها:

[1]- مشانة محمد عبد العزيز ومناد طالب، ملامح النزعة الإنسانية في التصوف الإسلامي (قراءة في أعمال محمد إقبال)، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، الجزائر، العدد 3، 2022، ص11-12.

[2]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص16.

تستعمل لفظة (ذات) كمرادفة لكلمة "خودي" في أغلب الترجمات الشعرية و النثرية والدراسات الفلسفية حول إقبال، و يظهر ذلك في ترجمة "عبد الوهاب عزام" لمقدمة ديوانه "أسرار خودي" أن اللفظة نقصد بها تعيين الذات[1]، و يقول كذلك في "أسرار خودي"[2]:

شيمة الذات التجلي لا الخفاء

وهي في الضياء بأس و ضياء

تستعمل لفظة "أنا" كمرادفة لكلمة "خودي"، و نجد ذلك في تصريح محمد إقبال في مقدمة "أسرار خودي" بأن الإسلام يرى بأن الـ "أنا" مخلوق ينال الجهد بالعمل[3]، و كذلك في "تجديد الفكر الديني في الإسلام" أطلق إقبال لفظة أنا تعبيرا على خودي[4].

تستعمل كلمة "روح" كمرادفة لكلمة "خودي" في كتابه "تجديد الفكر الديني في الإسلام" حين قال على لسان العلماء المسلمين و على رأسهم الغزالي أن خودي جوهر روحاني[5].

[1]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص16

[2]– المصدر نفسه، ص28.

[3]– المصدر نفسه، ص16.

[4]– محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص166.

[5]- مصدر نفسه، ص166.

وفي الترجمات الانجليزية، نجد خودي تكتب على شكل "khudi"، تستخدم كلمة "I" كمرادف لها، و يظهر ذلك في قوله[1]:

? say about "I" and its brilliance i what can

"It is manifest from the Qur'anic text, " we proposed

ماذا تريدني أن أقول حول خودي و عبقريتها

وهي تجلت في الآية القرآنية "و عرضنا"

تستخدم لفظة "ego" كمرادف لـ "خودي" و يظهر ذلك في قوله[2]:

the life of the ego is to bring non-ego

into existence

حياة "خودي" متمحورة حول خلق اللا "خودي"

ولفظة "self" تستخدم كذلك كمرادف لـ "خودي"، و يظهر ذلك في قوله[3]:

when the mountain loses itself

It turns to sands

عندما يفقد الجبل خودي

يصبح رمال

[1] -Mohamed iqbal ,gulshan-I raz-I jadid and bandagi namah ,translation :bashir ahmed dar ,Institute of Islamic culture ,Lahore ,1964 ,p37 .

[2] -Ibid, p30.

[3] -Mohammed iqbal ,the secrets of the sel ,translation: Reynold A. Nicholson, the Macmillan company ,London ,1920 ,p20 .

وتستخدم كلمة "soul" كمرادفة لـ "خودي" و يظهر ذلك في قوله[1]:

for soul without freedom is not soul...

بدون الحرية لا يمكن أن نعتبر خودي محققة

➢ تعريف خودي

نجد أن تعريف إقبال لخودي لم يحدد صراحة من قبله، بل أنه كان منتشرا في كتاباته، أي أن تعريف الـ "خودي" كان مدسوسا في نقاشاته الفلسفية المتمثلة في كتاب "تجديد الفكر الديني في الإسلام" من جانب، ومن جانب آخر، نجده جليا بطريقة مجازية في أشعاره، فتحديد تعريف خودي بدون فهم فلسفة خودي الاقبالية كمجمل أمرا وجدناه بالغ في الصعوبة، والتعريف الذي سنطرحه هنا يرتكز على تحديد الميزات التي تميز المفهوم حسب إقبال.

في كتابه "تجديد الفكر الديني في الإسلام" يطرح إقبال تعريف الذات الذي قال به علماء الإسلام و على رأسهم "أبي حامد الغزالي"، ويقول أن الذات هي جوهر روحاني بسيط غير منقسم و ثابت و يختلف تماما عن مجموع حالاتنا العقلية، ولا يتأثر بمرور الزمن[2].

[1] -Mohamed iqbal ,gulshan-I raz-I jadid and bandagi namah ,translation :bashir ahmed dar , Institute of Islamic culture ,Lahore ,1964 ,p41.

[2]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص164.

أما للذات عند إقبال خاصيتين مميزتين:

- ✓ الأولى: أنها تكشف عن نفسها كوحدة فيما نسميه بالحالات العقلية؛ والحالات العقلية لا يمكن أن توجد منعزلة عن بعضها البعض، فقط الحالة المادية عند إقبال هي التي تستطيع أن تتركب وتنقسم وتوجد منعزلة عن أجزائها، وأن هذا المركب الموجود في وحدة يسميه إقبال العقل[1]، فإقبال قال أن الذات تكشف عن نفسها، أي تتجلى فقط كوحدة لحالات عقلية وليس هي في حد ذاتها العقل. بإضافة إلى أنها غير مقيدة بالنظام المكاني والزماني، فيمكن أن تفكر الذات في أكثر من نظام مكاني واحد على غرار الجسم (المادة) الذي يستطيع أن يتواجد في مكان واحد فقط، وفي الوقت نفسه يمكن أن تفكر في الحاضر والمستقبل في آن واحد[2].
- ✓ الثانية: خصوصيتها الجوهرية، وذلك من حيث علاقاتها مع الذوات الأخرى في العالم فكل ذات متفردة وتعمل في مدارها الخاص، فالألم الذي تعانيه ذات لا يمكن أن تشعر به ذات أخرى[3].

فالذات عند محمد إقبال هي دائما في حالة عمل و نشاط، فطبيعتها ديناميكية وليس ثابتة، ويمكن فقط أن نلتمس الذات من خلال نتائج أفعالها، أي في إدراكها وأحكامها وإرادتها[4].

---

[1]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص164

[2]- المصدر نفسه، ص164.

[3]- المصدر نفسه، ص165.

[4]- المصدر نفسه، ص170.

ويشير محمد إقبال في مقدمة "لأسرار خودي" بأن لذة الحياة مرتبطة باستقلال الـ "أنا" وإثباتها و إحكامها و توسيعها، وهذه الدقيقة تمهد إلى فهم الحقيقة المطلقة[1].

ويقول الأستاذ "نيكلسون" في مقدمة "أسرار خودي" أن الهدف الأساسي للإنسان هو إثبات ذاته لا نفيها، وعلى قدر تحقيق انفراده ووحدته يقرب إلى الهدف الذي قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "تخلقوا بأخلاق الله"، والذي يعني تحقيق الإنسان للخلافة والإنابة من خلال إثبات ذاته[2]، و طرح "نيكلسون" يحيلنا لعدة تساؤلات، لماذا الذات لهذه الأهمية؟ ما هي طبيعتها؟ و كيف تتجلى في العالم؟ و هل الذات حقيقة أم مجرد وهم؟

ومن هنا، سنحاول أن نحلل طبيعة "خودي" من خلال كونها حقيقة من جانب، و كونها كونية من جانب آخر.

[1]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص16.

[2]- المصدر نفسه، ص19.

المطلب الثاني: طبيعة خودي

1. خودي، حقيقة

يرتبط مفهوم الذات بمعاني ميتافيزيقية غالبا، مما يؤدي إلى التساؤل حول حقيقتها، هل هي موجودة أم هي مجرد وهم كما تدعيه الفلسفات الشرقية المتمثلة في الهندوسية و البوذية وكذلك أنصار وحدة الوجود المتصوفة المسلمين المتأثرين بالفلسفة الهيلينة والأفلاطونية المحدثة، فكل هذه الفلسفات تعتبر الذات وهم وأن إثبات الذات و معرفة حقيقتها هو أصل المعاناة في العالم ومنه ينبغي نفيها.

يقول إقبال أن سيرة الأمم متوقفة على وجود الذات من وهمها، أي أن تاريخ الأمم يتجلى في الأحداث الواقعة له، ولا تقع له الأحداث إلا بوجود فعل وردة فعل، ويواصل إقبال تصريحه بأنه سؤال لا يجاب بالفكر فقط، بل بفطرة وطبائع الأمم التي جبلت عليها فأمم الشرق حسب إقبال تعتبر خودي وهم والخلاص منه هو النجاة، خودي تنشأ بالعمل ولهذا ترك العمل هو الطريق الوحيد للتخلص من أصل الشرور والآلام، ويختلف إقبال مع هذا القول ووضحنا ذلك في نقده للتصوف السلبي في الفصل السابق[1].

ناقش إقبال في كتابه "تجديد الفكر الديني في الإسلام" مسألة حقيقة الذات بطرحه لأفكار الفيلسوف "برادلي*" حولها من خلال كتابه "المظهر و الحقيقة"، الذي يجعل من الذات موضوعا للبحث الدقيق[2].

[1]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص15

[2]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص162.

يضع " برادلي" مقياسا للبحث عند دراسته مفهوم الذات هو أن الحقيقة ينبغي أن تخلو من التناقضات لتصنيفها على أنها حقيقة، فوصل بعد دراسته التحليلية والنقدية للتجربة الجوانية إلى حقائق مليئة بالتناقضات كاجتماع مفهومي الوحدة و التعدد في آن واحد واستنتج من ذلك أن الذات وهم خادع[1].

وفي هذا، يرى إقبال أنه لا يمكن أن ندرس حقيقة الذات من وهمها إلا بفحصها عن طريق قوانين الفكر، وقوانين الفكر من طبيعتها أنها تستند على علاقات، إذن حتما تتطرق إليها المتناقضات، وهنا إقبال ينقد منهج برادلي في دراسته للذات بالبرهان بالخلف.

ثم يواصل إقبال في نقده بقوله أن برادلي سلم بأن الذات ينبغي أن تكون حقيقة بمعنى من المعاني، أي ثابتة، وبهذا أظهر الذات على أنها خليط من المتناقضات، في حين أن الذات هي وحدة من وحدات الحياة، فهي في طبيعتها تعتمد على مبدأ الحركة و التفرد، أي أن الذات دائما في فعل نحو الكمال والتوازن لإثباتها، وليست ساكنة كما صورها برادلي[2].

ثم يستنتج إقبال أن الفكر مهما حلل وشرح حقيقة الذات فإن شعورنا بالذاتية يؤكد وجودها حقيقة، و هو شعور قوي يرقى فوق كل منهج عقلي تحليلي، وأن التجربة الجوانية التي تعتبر أساس دراسة حقيقة الذات هي في حقيقة الأمر ذات في حالة فعالية ونشاط ويوضح القرآن الكريم وظيفة الذات ويثبت حقيقتها في قوله عز وجل<< و يسألونك عن

[1]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص163.

[2]– المصدر نفسه، ص163.

الروح قل الروح من أمر ربي و ما أوتيتم من العلم إلا قليلا>>[1]، أي أن الذات وظيفتها التوجيه والتدبير، وهذا ما يعبر عن الفعل والنشاط كأساس للذات الخلاقة[2].

و بتعبير الأستاذ نيكلسون، أن الذات حق لا باطل[3]، ويظهر ذلك في قصيدة إقبال في زبور عجم كما يلي[4]:

If you say that the "I" is a mere illusion

An appearance among other appearances

Then tell me who is the subject of this illusion

Look within and discover

The world is visible yet its existence needs proof

Not even the intellect of an angel can comprehend it

The I is invisible and needs no proof

Think awhile and see thine own secret

The I is truth, it is no illusion

Don't look upon it as a fruitless field

When it ripens, it become eternal

[1]- الإسراء: الآية 85.

[2]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص163.

[3]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص19.

[4] –Mohamed iqbal ,gulshan–I raz–I jadid and bandagi namah ,translation :bashir ahmed dar ,Institute of Islamic culture ,Lahore ,1964 ,p 51.

وهذه قصيدة توضح بشكل جيد موقف إقبال من الذين يعتبرون الذات وهم، وترجمناها كالآتي:

إذا قلت أن الـ أنا هي مجرد وهم

مجرد ظهور بين الموجودات الظاهرة

إذن أخبرني من الذي يتأثر بهذا الوهم (أي تقول أن الذات وهم، من في رأيك أعطاك هذا الرأي ويشير هنا إلا أنها "خودي" التي لم تكترث لها ولتقويتها ثم يواصل ..)

أنظر للداخل و اكتشف (اكتشف الذات التي أهملت حقها، وانظر للداخل دلالة على أهمية التجربة الصوفية الجوانية التي يعتبرها أنها الذات في حالة فعالية ونشاط للاقتراب من الحق سبحانه)

العالم مرئي، مع هذا يحتاج وجوده لدليل! (وهنا استعجاب من إقبال يبين الطريقة الخاطئة التي يفكر بها القوم)

بفكر الملائكة ولا تستطيع فهم خودي (وهنا إشارة إلى أن العقل كمصدر معرفة يقف عاجزا على تفسير التجربة الصوفية والوصول إلى حقيقة الذات، ولهذا يقول إلى سطر سابق انظر للداخل واكتشف، وقوله بفكر الملائكة أي بعقل المخلوقات السامية النورانية ولا تستطيع أن تثبت خودي وهنا يبين إقبال مدى براعته في الحجاج)

الـ أنا خفية ولا تحتاج دليل (تصريح مباشر، وكأنه يقول لهم، لا تتعب نفسك، فالطريق الذي تسلكه لا يظهر لك حقيقتها، لأنها خفية من ذلك الجانب)

فكر قليلا وانبش في أسرارك الداخلية (فكر قليلا، لا تعني أنك إن فكرت فتدرك حقيقة خودي، بل كأنه يقول تواضع لحقيقة أن خودي خفية ولا تحتاج دليل واسلك طريق الاكتشاف)

الـ أنا حقيقة، ليست وهم (وهو موقف إقبال)

لا تنظر إليها بنظرة دونية (أي لا تحتقرها وتنفيها)

عندما تنتعش، تصبح أبدية.(أي عندما تصبح قوية، تقترب من الذات المطلقة وتصبح خالدة بنور الحق)

2. خودي كونية

يرى إقبال أن خودي هي مركز الكون، فهي جوهر كل شيء كان وكل شيء يكون، وأن كل الموجودات هي ذوات فردية متميزة عن بعضها البعض ، وحتى الله هو ذات فردية متعالية لا متناهية، فالعالم أصله ذوات فردية تتجلى بدرجات متفاوتة في عملها وإرادتها، وأن إثبات الذات هو أصل هذا العالم الذي دائما في حركة خلق مستمر ونشاط دائم.

وفي ديوانه "أسرار خودي" يوضح إقبال طبيعة الذات الكونية بأنها خالقة لكل شيء كما يلي:

هيكل الأكوان من آثارها *** كل تبصر من أسرارها

أي أن شكل الوجود و كل ما هو موجود هو في الحقيقة من عمل الذات، ثم يواصل:

نفسها قد أيقظت حتى انجلى*** عالم الأفكار بين الملا

أي عندما تستيقظ الذات و توعى يظهر لنا عالم الأفكار حقيقة.

ألف كون مختف في ذاتها*** غيرها يثبت من إثباتها

أي أن إثبات الذات هو الغاية الأساسية من هذا العالم كله، فألف كون مختف في ذاتها تعبير عن الدلالة الخلاقة للذات واتساعها وإرادتها وقوتها، وأن هذه الأكوان تبقى مختفية إلا إذا أثبتت ذاتها وارتفعت في درجات الوعي[1].

ومن هذه الأبيات يتضح لنا أن الذات هي الخلاقة لكل شيء، ولا يصح القول بأنها الخالقة لكل شيء، ذلك لان اللفظ يشير إلى حدث جرى وتوقف في الماضي، أما مقصود إقبال من هذه الأبيات هو استمرارية الخلق والفعل و يوضح هذا البيت ما يلي[2]:

همها الأعمال فهي العامل*** وهي العلة وهي المقابل

ثورة فيها وإجفال ونور*** واحتراق واختفاء وظهور

ويظهر معنى هذا البيت بصورة واضحة في ترجمة "نيكلسون" حين يقول[3]:

Subject, object, means and causes

They all exist for the purpose of action

The self rises, kindles, falls, glows, breaths

Burns, shines, walks and flies

موضوع، شيء، مقاصد وأسباب

كلهم يتواجدون لغاية الفعل (العمل)

الذات ترتفع، تذوب، تسقط، ترقى، تتنفس

[1]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص27.

[2]- المصدر نفسه، ص28.

[3] – Mohammed iqbal ,the secrets of the self ,translation: Reynold A. Nicholson, the Macmillan company ,London ,1920 ,p 18-19

تحترق، تتنور، تمشي وتطير ..

وهذا يوضح لنا أمرين، بجانب أن خودي هي جوهر الكون وهي خلاقة مبدعة، فإن البيت السابق يوضح لنا أن كل العمليات النفسية، العقلية، العملية والروحية تجتمع لغاية واحدة وهي العمل المستمر.

أما الأمر الثاني هو أن الذات حية، ترتفع وتسقط وتذل...إلخ، وكل هذا مرتبط بالأعمال الأخلاقية الدينية والأعمال العملية التجريبية، وهنا أمر مهم، التضاد في الكون لا يؤدي حسب إقبال إلى الفوضوية، وإنما الفوضوية تظهر عندما لا يجتمع التضاد في كل واحد، و لغاية واحدة، وإثبات الذات هو أساس التناغم والتوازن.

حسب إقبال فإن الذات ترفض نفي نفسها، فهي تتجلى في الكون خلقا، تسييرا وتدبيرا كما يقول[1]:

شيمة الذات التجلي لا الخفاء*** وهي في الذات بأس و ضياء

وتوضح هذه الأبيات لإقبال في "زبور عجم "مركزية الذات في الكون، يقول[2]:

Ego is the amulet for the protection of the universe

The first ray of its essence is life

Life awakens from its sweet dream

Its inside, which is one, becomes many

[1]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص27.

[2] -Mohamed iqbal ,gulshan-I raz-I jadid and bandagi namah ,translation :bashir ahmed dar , Institute of Islamic culture ,lahore ,1964 ,p31 .

Neither it develops without our expansion

Nor do we expand without its development

Its inner core is a shoreless sea

The heart of every drop is a tumultuous wave

It has no inclination to rest

.The manifestation is nothing but individuals

خودي هي التعويذة التي تحمي الكون (كلمة amulet تعني جوهرة صغيرة ترمز لإبعاد الشر والحسد)

أول شعاع لجوهرها هو الحياة (أي أنها جوهر الحياة)

الحياة تستيقظ من حلمها (تظهر الحياة بها)

هي في الداخل، واحدة، وتصبح متعددة (إدراكها يكون من الداخل، هي واحدة متفردة ولكنها تتجلى في ألف كون كما قلنا سابقا)

لا تتطور بدون تطورنا (لا ترتفع في درجتها بدون عملنا ونشاطنا واجتهادنا)

ولا نتطور بدون تطويرها (ولا نرتفع في الوعي بدون ارتفاعها في الدرجة, وهنا يظهر اهتمام إقبال بالتناسق بين المتضادات)

شكل الحياة الداخلية كبحر بدون شاطئ (أي التجارب الصوفية لا يمكن حدها وعدها وتحديد مدها)

قلب كل قطرة فيه موجة عنيفة(وهنا دلالة على ارتباط الذات بالنشاط)

ليس للخودي اهتمام في الراحة (وهذا يؤكد شرحنا السابق)

تجليها يظهر فردي

وفي قوله تجليها يظهر فردي، يبين لنا نظرة محمد إقبال أن تجليات الحياة تكون فردية، أي تظهر الحياة كذوات فردية متميزة عن غيرها، متفردة، كل ذات لها درجتها في الكينونة، يقول نيكلسون في مقدمة أسرار خودي أن الحياة كلها فردية، وليس للحياة الكلية وجود خارجي، وحيثما تجلت الحياة تجلت في شخص أو فرد أو شيء، والخالق كذلك فرد ولكنه أوحد لا مثيل له[1].

إذن، إقبال يرى أن الكون كله حركة حرة مبدعة، تتناغم كل العناصر المكونة له فيه وأن الكون قابل للزيادة حيث أنه ينمو، وليس صنعا مكتملا خرج من يد صانعه منذ حقب بعيدة، وأن الكون غير ممتد في الفضاء أشبه ما يكون بمادة ميتة، إذن حسب إقبال المادة ليست شيء جامد، بل هي ذات من درجة متدنية بما أن كل شيء ذات[2].

فالمادة ما هي إلا مجموعة من الذوات ذات رتبة متدنية، تنشأ منها ذات أعلى رتبة عندما يصل ما بينهما من ترابط وتفاعل و درجة معينة من الاتساق، وحقيقة الخلق المستمر يكمن في انبثاق الذات الأعلى رتبة من الذات الأدنى رتبة، أي أن الخلق تصاعدي وليس تنازلي[3].

---

[1]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص19.

[2]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص43.

[3]- المصدر نفسه، ص198.

وهذا حسب إقبال لا يسلب من الذات الأعلى رتبة قدرها، فالمهم هو قصد وهدف الذات الأعلى رتبة من التي انبثقت منها، و يشرح محمد إقبال يشرح فيه كيف يحدث الخلق من الذات برتبة أدنى إلى ذات أعلى منها رتبة بذكر قصيدة لمولانا الرومي يقول فيها[1]:

في البداية ظهر الإنسان في رتبة الأشياء غير العضوية
ثم انتقل من رتبة الجماد إلى رتبة النباتات
وعاش سنوات بصفته أحد النباتات
لا يتذكر شيئا عن حالته غير العضوية المخالفة لما صار إليه
فلما انتقل من حالته النباتية إلى الحيوانية
لم يعد يتذكر حالته كنبات
سوى ميله الذي يحس به نحن عالم النبات
خصوصا في وقت الربيع وتفتح الأزهار الناضرة
مثلما يحس الأطفال بحنين إلى أمهاتهم
دون أن يعرفوا سبب ميلهم إلى صدورهم
ثم أخرجه الخالق العظيم-كما تعلمون-
من رتبة الحيوانية إلى رتبة الإنسانية
فانتقل الإنسان بذلك من رتبة في الطبيعة إلى رتبة أخرى
حتى أصبح حكيما عالما قويا كما هو الآن
لكنه الآن لم يعد يذكر شيئا عن نفوسه الأولى
و سوف تتغير نفسه الحالية أيضا.

وهذا يحولنا إلى نتيجة مفادها أنه لا يوجد شيء على المستوى المادي البحت، لأن الذات المطلقة حاضرة متجلية في الطبيعة بالعمل والفعل[2]، و يبرر موقفه بقول الله <<هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن[3]>>.

[1]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص198-199.
[2]- المصدر نفسه، ص176-177.
[3]- الحديد، الآية 3.

خلاصة الأمر، يرى إقبال أن خودي هي جوهر الكون وأساس نظامه، وسر الحياة فيه، وأن الذات فردية متفردة، فالعالم يتجلى في الفرد، وأن الله يعتبر فرد كذلك، ولكنه ليس كمثله شيء، وأن الحياة مبنية على الحركة والفعل المستمر، أي أن الكون ليس مخلوق في ماضي ثابت، بل هو في خلق مستمر، وهذا الخلق المستمر تفعله الذات في تفاعلها مع بعضها البعض، والغاية الكبرى من هذا كله هو تقوية الذات وتحقيق كمالها، فالذات تضعف وتذل وتقوى وتحيا وتموت، وأن كل ما يضعف الذات هو شر، وكل ما يقوي الذات هو خير يقول إقبال[1]:

.Life of the universe comes from the strength of the self

حياة العالم تأتي من قوة الذات

ويقول أيضا:

When the mountain loses its self

It turns into sands

عندما يفقد الجبل ذاته

يتحول إلى رمال

[1] -Mohammed iqbal ,the secrets of the sel ,translation: Reynold A. Nicholson, the Macmillan company ,London ,1920 ,p20 .

وفي هذا دلالة واضحة على أن خودي تتأثر وتؤثر، فالسؤال هنا ، فما الذي يقوي خودي وما الذي يضعفها ؟ وعلى ماذا تمر خودي لكي تصل لغايتها؟ وهذا ما سنحلله في المبحث القادم تحت عنوان إثبات "خودي".

المبحث الثاني: إثبات "خوذي"

المطلب الأول: ما تقوى به "خودي"

يرى محمد إقبال كما أشرنا سابقا أن خودي هي الحياة نفسها، فهي تقوى وتضعف وتذل وترقى...، و أن كل ما يقويها هو خير، و كل ما يضعفها هو شر[1]، فالذات تحيى بخلق المقاصد وتوليد الرغبات، وتقوى بالحب، وأن ما يضعفها هو السؤال.

1- خودي والمقاصد

يخص محمد إقبال في ديوانه "أسرار خودي" قسم يعنونه بـ "في بيان أن حياة الذات بتخليق المقاصد و توليدها"[2]، وأطلق "نيكلسون" في ترجمته للديوان مكان لفظ المقاصد بلفظ الرغبات (desires)، ونرى أن لفظ المقصد الذي أطلقه "عبد الوهاب عزام" أبلغ من الرغبة فالرغبة عادة ما ترتبط بدلالة سلبية، يظهر فيها الإنسان بجانبه الغريزي البعيد عن السمو الذي يقصده إقبال، والمقصد من جهة أخرى كلمة نقية تعبر عن غاية نبيلة وسامية تخلقها الذات بغية تحقيقها، فيها تحيى وتقوى، وبتحقيقها تسمو وتكتمل. ولكننا نرى أن "نيكلسون" يقصد من الرغبة جانبها الايجابي، كأن نقول أن لدينا رغبة ملحة في تحقيق هدف معين وتوليده.

[1]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص20.

[2]- المصدر نفسه، ص29.

فالحياة تستمر بخلق المقاصد الذي تضعه الذات، فالمقصد يعبر عن رؤية الحياة من جانب ايجابي حيوي، يرى إقبال أن الحياة ينبغي أن تكون قائمة على الأمل والجهد العنيف كما يسميه، ويقول في أسرار خودي[1]:

إنما يبقي الحياة المقصد***جرس في ركبها ما تقصد

سر عيش في طلاب مضمر***أصله في أمل مستتر

أحي في قلبك هذا الأملا***لا يحل طينك قبرا مهملا

ويقول أيضا في ديوانه جناح جبريل[2]:

يتجاوز الهلاك كل وجوهه وجها بعد وجه.

من يستطيع بلوغ الغاية القصوى دون جهد كبير؟

ولبلوغ الكمال لا يجوز لك أن تتجنب الصعاب

بل يجب عليك أن تتغلب عليها

وهذا موافق لقوله سبحانه وتعالى << قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم[3]>>.

فالإنسان هو الذات الوحيدة التي تمتلك هذه الخاصية، فهي ذات كما أشرنا سابقا أعلى مرتبة من باقي الذوات، بسبب أنها وقع عليها اختيار الذات اللامتناهي في آية<<وعرضنا>>

[1]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص29.

[2]– محمد إقبال، ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة، إعداد: عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ج1، ط3، 2007، ص65.

[3]- الزمر، الآية53.

وتحقيق القصد هو الذي يجعل الذات حية، فالذات أساس الإبداع والعمل، وبها تسري أمور العالم والخلق المستمر، ومنه تحقيق القصد يتوافق مع طبيعة الذات الكونية التي أشرنا إليها سابقا ويقول إقبال في ذلك[1]:

جاهلا سر الحياة! اجتهد***وامض نشوان بخمر المقصد

مقصد كالصبح في أنواره***محرق كل (سوى) في ناره

مقصد يجتاز آفاق السماء***يأخذ القلب بحسن وبهاء

ثورة فيه وفي محشر***وعلى الباطل حربا يسعر

نحن أحياء بخلق الأمل

نحن في نور بهذي الشعل

فإذا كان للإنسان غاية يسعى إليها، فلا شك أنه سيجد ويتعب للوصول إليها، ولابد له أن يتغلب على ما يعترضه من عقبات، وما يدهمه من صعاب، ويعالج أمرها بما أوتي من قوة وحب، لأن الغاية جميلة وتهون إزاءها كل الصعاب[2].

فالله في رأي إقبال لم يخلق الإنسان عبثا، فكل هذه المخلوقات التي خلقها الله وفي نهاية موت لا مفر منه وحياة لا معنى لها! إن هذا لشيء عجاب، وفي هذا يرد على أصحاب نفي الحياة ورؤيتهم العدمية حولها[3].

[1]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص30.

[2]– نجيب الكيلاني، إقبال الشاعر الثائر، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، بدون سنة، ص51.

[3]- نجيب الكيلاني، إقبال الشاعر الثائر، مرجع سابق، ص52.

2- خودي و الحب (العشق)

يخصص محمد إقبال كذلك في "أسرار خودي" قسم يسميه "في بيان أن الذات تستحكم بالمحبة والعشق"، فالمحبة والعشق لفظتان ترددت في أشعار محمد إقبال بكثرة، وهذا يجعلنا نقدر تأثره الشديد بمولانا الرومي الذي كان العشق في مثنويه قوة الحياة وأساس الإرادة الحرة ويقول[1]:

وامض كالرومي شمعا يشتعل***وارم من تبريز في الروم الشعل

فماذا يقصد إقبال من العشق الذي تتردد في شعره، يقول الأستاذ "أبو ناصر الهندي" أن العشق في مفهومه المطلق هو الشيء الذي يقوي الذات وينميها، ويدفعها نحن الكمال الخالد، والعشق معناه جذبك الشيء أو طلبك إياه، لتجعله جزء من نفسك، وأسمى صور هذا العشق وأعلاها وأفخمها هو توليد المقاصد، هو خلق القيم والغايات ثم العمل على تحقيق هذه المقاصد والآمال[2].

ويقول محمد إقبال في أسرار خودي[3]:

نقط النور التي تدعى ذوات***شرر في طيننا للحيوات

مشعل بالحب منها الجوهر***يتجلى من قواها المضمر

قطرة بالعشق توعي ضرما***و هي بالعشق تنير العالم

[1]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص30

[2]- نجيب الكيلاني، مرجع سابق، ص56.

[3]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص30.

والعشق يرتبط عند إقبال بفكرته حول الذات كونها فردية متفردة، فإذا الذات طلبت أو عشقت شيئا، فإن ما غيره يصبح أمره لا يهم، فالعشق بهذا المفهوم يعتمد على طبيعة خودي في خصوصيتها الجوهرية ألا وهو التفرد، فيركز العاشق على مقصده وغايته التي أكن لها الحب، مما يقويه على تجاوز المصاعب والأزمات. فالعشق هو الذي يثير الرغبة في الكائنات و يوقظ فيها حب الحياة، وغاية العشق تقوية الذات ورقيها و السير بها نحو الحرية و الكمال الخالد[1].

يقول إقبال في جناح جبريل[2]

الحب أن تبصر الذات*** والحب أن تصون الذات

وقال أيضا[3]:

من لهيب العشق ثارت***ثورة في الكائنات

وشهود(الذات) للعشق***و للعلم صفات

ومن العشق ثبات***وحياة و ممات

ويوجد العشق كما يرى إقبال بحبنا لنبي (صلى الله عليه وسلم)، لأن سيرته وأخلاقه هي المثل العليا، كان بأقواله وأعماله الإنسان الكامل في الحرب والسلم، مع الأصدقاء والأعداء فكانت أخلاقه القرآن، ومتى فهم الإنسان هذا الفهم عن محمد (صلى الله عليه وسلم) ووعى بأسرار رسالته التوحيدية ثم اتبع الفهم بعشق صاحب هذه الأفضال، فقد علم مدى العشق

[1]- نجيب الكيلاني، إقبال الشاعر الثائر، مرجع سابق، ص57.

[2]- محمد إقبال، ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص65.

[3]- المصدر نفسه، ص26-27.

ومعناه، فحبك لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وعشقك إياه سيدفعك حتما في السير في طريقه واقتفاء أثره في حياتك، وهذا هو الهدف الأسمى[1].

كما تقوى الذات بالعشق تضعف –في المقابل– بالسؤال، وكل ما ينال بغير جهد يعد سؤالا، فالذي يرث مال غيره سائل، والذي يتبع أفكار غيره أو يدعيها لنفسه سائل. والخلاصة أنه ينبغي لإحكام الذات أن نخلق في أنفسنا العشق و نجتنب كل ضروب البطالة التي تنفي قيمة العمل، و منه تنفي أساس سير الحياة و الكون[2].

ويقول إقبال في السؤال[3]:

أيها الجابي من الأسد الخراج***صرت كالثعلب خبا باحتياج

ذلك الاعواز أصل العلل***كل آلامك من ذا المعضل

وهنا نداء من إقبال إلى الشخص الذي نسى قيمة ذاته وأكثر السؤال، كأنه يقول له بأسلوب النصح، وتتساءل مما تتألم، فتألمك من ضعفك واحتياجك للغير، ويكمل إقبال ويقول[4]:

سالب الرفعة من فكر رفيع *** مطفئ الشمع من الذهن البديع

من كنوز الدهر أخرج ما تريد***وخذ الصهباء من دن الوجود

وعن الرحل ترجل كعمر***احذرن من منة الناس، الحذر

[1]- نجيب الكيلاني، إقبال الشاعر الثائر، مرجع سابق، ص60.

[2]- عبد الوهاب عزام، محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2014، ص67.

[3]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص32.

[4]- المصدر نفسه، ص33.

أي احذر أن تقع في أيدي الناس ومنتهم عليك، وبخطاب الحب القاسي يكلمنا إقبال بالترجل مثل عمر، ويقصد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي يعتبر مثال للرجولة، القوة والاستغناء عما في أيدي الغير.

المطلب الثاني: مراحل تربية "خودي"

أشرنا سابقا، أن خودي تحيى بتخليق المقاصد وبوضع الأهداف صوب عينيها وأن الحب هو ما يقوي الذات على تحمل صعوبات الحياة التي تقف في سالك الطريق، وأن أعظم الحب هو حب النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فهو الإنسان الكامل في سيرته وخلقه وراسلته التي أجرها الحق على ذاته.

يرى محمد إقبال أنه لتحقيق الغاية الكبرى لذات الإنسان ينبغي أن يمر على ثلاث مراحل، حددها في ديوانه "أسرار خودي" بمراحل تربية خودي.

1- طاعة القانون الإلهي

عندما نسمع كلمة طاعة يأتي في أذهاننا الإتباع مع الاستسلام، أن تطيع قول يعني أن تتبعه بدون رجوع، فترى في حدوده السلامة من الضياع، وتلتمس من حكمته صلاح العمل الذي يساعد الذات في تحقيق مقاصدها وغاياتها.

باعتبار أن الإسلام هو دين الإنسانية جمعاء، وأن به تحيى الذات وترتقي، فتعاليم القرآن التي أجراها الله على نبيه المصطفى (صلى الله عليه وسلم) هي حقيقة في ذاتها، فهي

القول الذي بإتباعه ترتقي الذات وتقوى لدرجة الكمال، فروح الإسلام هي الذات نارها ونورها يقول إقبال في جناح جبريل[1]:

إن نار "الذات"، و النور لديها***هي للإسلام روح مستنير

إن نار الذات"، فاقبس من لظاها***في حياة الخلق نور وسفور

هي تقويم وجود وهي أصل***للتجلي أخفيت خلف ستور

إن قلى الغرب من الإسلام لفظا***فله اسم آخر: الفقر الغيور

يضع محمد إقبال في "أسرار خودي" جمل الصحراء كرمز للطاعة، فالطاعة تحمل في داخلها صفة التحمل والرضا والصبر على الشدائد، ولا يكون هذا التحمل والصبر إلا إذا كان الإنسان محبا عاشقا لما يطيع، فالمحب لمن أحب مطيع، فحب الله يستلزم من المؤمن في نظر إقبال أن يحمل في قلبه الرضا لأمره راجيا منه حسن المآب، طالبا منه الإعانة والتوجيه، فالجمل من طبعه صبور متحمل للمشاق في سبيل قطع طريقه في الصحراء، كما المؤمن المطيع، الذي يرى في الصحراء ورد وفي السخونة برد، ويقول محمد إقبال في ذلك[2]:

ألفة الكد شعار الجمل***شيمة الصبر وقار الجمل

صامت الأخفاف يمشي ماضيا***زورقا في البيد يسري هاديا

نقشت وجه الصحاري أرجله***شارد النوم قليلا أكله

ويقول أيضا:

فاحمل الفرض قويا لا تهاب***وارجون من عنده حسن المآب

[1]- محمد إقبال، ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص34.

[2]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص34.

اجهدن في طاعة يا ذا الخار***فمن الجبر سيبدو الاختيار

بامتثال الأمر يعلو من رسب***وهوى الطاغي ولو كان اللهب

فالبيتين الأخيرين يناقش فيهما إقبال رأي المعترضين عن الطاعة باعتبارها تنزع من حرية الإنسان وفرديته، وإقبال الذي فلسفته تعتمد على حرية وفردية الذات، يرى أن الطاعة إذا فهم المؤمن معناها الجوهري، فهي حرية وليس جبر، فهناك دائما اختيار بين أن تطيع أو أن ترفض، ولكن السير في طريق تربية الذات يتطلب عند إقبال طاعة الذات اللامتناهية لشرب الذات من مياه الكمال، وبالحدود والأوامر تتضح مقاصد الذات، وكيف لا يطيع المحب من أحب.

وفي نهاية الأمر كل منا يختار ما يطيع، فمن يدعوا لحرية الاختيار ويرى الطاعة جبر، فسيطيع هواه بدون شعور، كقوله تعالى<<أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا[1]>>

2- ضبط النفس

لا تكون الطاعة ناجحة إلا إذا ضبط الإنسان نفسه، لفظة ضبط النفس عادة ما تحرك في المسلم مشاعر الذنب والحيرة، لأنها شديدة الصعوبة في الواقع، فالإنسان بطبعه كائن غريزي ينسى، فالنسيان يجري فيه طبيعيا، فروح الإرادة مع تذكر المقصد والغاية

[1]- الفرقان:44

الحقيقية باستمرار هي مهمة تناقض طبيعة الإنسان، ولهذا قال الله سبحانه<< لا يكلف الله نفسا إلا وسعها[1]>>.

فطاعة القانون الإلهي يلزم عنه ضبط النفس، ضبط النفس في شهواتها، ضبط النفس في نسيانها الغاية الأساسية لوجود الذات في المقام الأول، ضبط النفس من الاستسلام عندما تكثر الصعاب والتحديات، ضبط النفس عن النواهي والمحرمات التي تضعف من الذات وتذلها، فلو سارت النفس على الهوى وجعلته من دون الله معبود، فتصبح هي الهوى ذاته كما يقول مولانا الرومي ما تبحث عنه يبحث عنك.

يقول إقبال بخصوص ضبط النفس مشبها اياها بالجمل[2]:

جمل نفسك تربو بالعلف *** في إباء وعناد وصلف

فكن الحر وقدها بزمام*** تبلغن من ضبطها أعلى مقام

وفي السياق يقول بخصوص ضبط النفس في ضوء التوحيد:

من تمسك بعصا من "لا إله"***فلتحطم طلسم الخوف يداه

كل من بالحق أحيا نفسه***لا ترى الباطل يحني رأسه

ثم يربط إقبال بين الطاعة من خلال أداء الواجبات التي أمرنا بها الإسلام وبين ضبط النفس، فطاعة الأوامر تؤدي حتما إلى تدريب المؤمن على ضبط نفسك من النواهي.

يقول إقبال[3]:

---

[1]- البقرة: 286.

[2]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص41.

[3]- عبد الوهاب عزام، محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره، مرجع سابق، ص89.

درة التوحيد، فاحفظها الصلاة ***حجك الأصغر، فاعرفها الصلاة

في يد المسلم هذا الخنجر*** يقتل الفحش به و المنكر

يفتك الصوم بجوع و صدى***ضابطا بالقسط هذا الجسد

وينير الحج قلب المؤمن***هجرة الأهل به و الوطن

إنما الطاعة أس الأمة***إنها خيط كتاب الملة

فينبغي على السالك حسب إقبال أن يوجه رغباته وشهواته التي لا تستقيم مع الأوامر الإلهية إلى طاقة ايجابية تقوي ذاته، نرى أنه ليس مقصود إقبال أنك يجب أن تخالف غريزتك وتحطمها، فهذا القول لا يتوازى مع فلسفته التي ترى الحياة في التوازن والتناغم وإنما بأداء العبادات تمارس الذات تجربة جوانية تكشف لها عن حقيقة هذه المفاهيم عمليا أي ليس الهدف من قول إقبال بالطاعة وضبط النفس هو إفناء النفس وتحطيمها كلية وهذا قول من أقوال التصوف السلبي الذي رفضه بالكلية، وإنما يقصد الاعتدال وتسخير قوى الإنسان للخير أكثر، ومنه، تسخير طاقات الإنسان لتقوية ذاته، وذلك بالطاعة والانضباط وفق الأوامر الإلهية.

3- النيابة الإلهية

إن كلمة النيابة تحيلنا إلى أن هناك نائب، ولكن النيابة هنا، نرى أنها كلمة تحمل استمرارية فعل أو قول، فعندما نقول أن فلان نائب لرئيس، يعني أن رتبه محددة ومضبوطة في زمان ومكان محددين، أما عندما نقول أن مؤسسة معينة تحمل دور النيابة، أي أن في

جوهرها نائبة في مكان وزمان غير محددين، ويفهم أنه مهما اختلف نوابها، فإن جوهر عملها مستمر.

وعندما نطلق لفظ النيابة الإلهية، نفهم أن للذات اللامتناهية رتبة ذات أسفلها تتجلى فيها أقوالها وأفعالها وصفاتها، فإن هذه الذات، تعتبر نائبة في إطار زمان ومكان غير محددين، فهذه الذات عندما تصل لهذه المرحلة تصبح صورة الذات المطلقة، فالذات هنا تصبح خليفة، ولا تستطيع أن تصبح كذلك إلا إذا أحبته وأطاعته وضبطت ذاتها في أمره.

وبما أن فعل الطاعة و ضبط النفس فعلين لا يحدهما زمان ولا مكان، فإن هذه المرحلة حسب محمد إقبال يبلغها من واصل في سلوكه واجتهاده لتقوية ذاته، فهو الصوفي الايجابي الحق الذي يمتثل لأمر الله وينهى عن نواهيه، فهو الذي جعل مقصده الحق، حتى وصل إليه بالحق، الذي كان الله لذاته مقصد المقاصد، وغاية الغايات، فجعل في قلبه لا شيء سوى الله، حتى أخذه عشقه له بلا فناء، فبقي كذات سامية بسمو معشوقها.

إذن، صاحب هذه المرتبة حقق الخلافة الذي قال فيها سبحانه: <<وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة[1]>>، وهي أسمى المنازل التي يصبو إليها كل مؤمن موحد، يقول فيه الله عز وجل<<يحبهم و يحبونه[2]>>.

ويصفهم محمد إقبال في شعره بقوله[3]:

---

[1]- البقرة: 30

[2]– المائدة:53.

[3]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص42.

نائب الحق على الأرض سعيد***حكمه في الكون خلد لا يبيد

هو بالجزء وبالكل خبير***وبأمر الله في الأرض أمير

هو في الناس بشير ونذير***وهو جندي وراع و أمير

وهذا هو الإنسان الكامل الذي يعتبره محمد إقبال غاية التجربة الصوفية والعملية على سواء، فهو الذات القوية، المبدعة الخلاقة، هو الهدف الأسمى لفلسفته الفردية. ومن هنا نطرح تساؤل، ما هو الإنسان الكامل؟ ومن هو عند محمد إقبال؟

الفصل الثالث: غاية التصوف الإيجابي عند محمد إقبال

المبحث الأول: نظرية الإنسان الكامل

المطلب الأول: تعريف خودي للإنسان

المطلب الثاني: صفات الإنسان الكامل

المبحث الثاني: نقد وتقييم فكر إقبال الصوفي

المطلب الأول: نقد فكر إقبال

المطلب الثاني: تقييم فكر إقبال

الفصل الثالث: غاية التصوف الإيجابي عند محمد إقبال

المبحث الأول: نظرية الإنسان الكامل

المطلب الأول: تعريف خودي للإنسان

يرى محمد إقبال في كتابه "تجديد الفكر الديني في الإسلام" في محاضرته الرابعة الذي عنونها "ذات الإنسان: حريته وخلوده" أن الإنسان هو وحدة من وحدات الحياة، ويبين الله عز وجل في قوله << وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون[1]>> مصير الإنسان الايجابي من خلال هدايته للحق، ويعتبر هذا أعز تكريم وأرقى اختيار[2].

وأن هذا الاختيار لا يكون جمعيا، بل حسب إقبال فإن ذات الإنسان متفردة متميزة عن غيرها، ويقول الله عز وجل<< ولا تزر وازرة وزرة أخرى[3]>>، فالإنسان مسؤول عن فعله، إذن فهو حر، بمعنى أنه خلاق وهدام في آن واحد، يقول الله عز وجل<< كل امرء بما كسب رهين[4]>>[5]

وعليه، تحتل ذات الإنسان عند إقبال أعلى درجة مقارنة مع الذوات في العالم كله لأن لها القدرة على الوعي والاختيار الحر ومنه العمل والإبداع، فإذا سلبت من الذات حريتها

---

[1]- الأنعام:80.

[2]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص46.

[3]- الأنعام:16.

[4]- الطور:21.

[5]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص47.

فما الذي يبقى من العالم غير حطب وصخر موجه إلى الفناء، وهذا يراه إقبال ينافي روح القرآن الذي يبين قيمة الإنسان مقارنة بموجودات العالم من القرآن الكريم كالآتي[1]:

- ✓ أن الإنسان مختار، أي أن الله اصطفاه بين كل الذوات<< ثم اجتبه ربه فتاب عليه و هدى[2]>>.
- ✓ الإنسان خليفة الله في الأرض رغم سقطاته << وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة[3]>>
- ✓ منح الله الإنسان حرية الفعل والإرادة مع تحميله مسؤولية ذلك في قوله عز وجل <<وإنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض فأبينا أن يحملها، وحملها الإنسان، إنه كان ظلوما جهولا[4]>>.

وهذا ما يشير إليه إقبال في بيته في زبور عجم[5]

What can i say about "I" and its brilliance?

It is manifest from the Qur'anic text, "we proposed"

ماذا تريدني أن أقول حول خودي و عبقريتها

وهي تجلت في الآية القرآنية << وإنا عرضنا>>.

---

[1]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص158.

[2]- طه:122.

[3]- البقرة:30.

[4]- الأحزاب:72.

[5] -Mohamed iqbal ,gulshan-I raz-I jadid and bandagi namah ,translation :bashir ahmed dar ,Institute of islamic culture ,lahore ,1964 ,p 51.

ويقصد بها الاختيار الذي وقع على ذات الإنسان من جهة الذات المطلقة وحرية الذات الإنسانية في تقبل الأمانة والاختيار، وهذا يشير إلى العلاقة الحيوية بين الحق والإنسان، و يعتبر هذا التصوف الايجابي عند إقبال.

إن حياة الذات الإنسانية عند إقبال تكمن في التوتر الناتج من غزو الذات للبيئة وغزو البيئة للذات، أي أن الذات الإنسانية تكون حاضرة في قلب هذا التوتر والصراع، لأنها تعتبر أن الصراع طاقة موجهة لها، أي يدفعها لا إلى الاستسلام والخنوع، بل إلى العمل والخلق المستمر، وفي هذا الحضور، تقوى الذات الإنسانية وترتقي[1].

ويرى كذلك أن القرآن يحدد وظيفة الذات الإنسانية، ويظهر ذلك في قوله تعالى: <<ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي و ما أوتيتم من العلم إلا قليلا[2]>> وأن معنى الأمر هو التوجيه والتدبير، ومنه، جوهر ذات الإنسان كما يراه إقبال يتمثل في السلوك والفعل، وأن التوجيه والتدبير يصدر من الذات اللامتناهية، مما نستنتج أن الإنسان يتجلى في أحكامه وإرادته وأهدافه وطموحاته وأمانيه[3].

وينبغي علينا أن نوضح الفرق بين الذات المتناهية المتمثلة في الإنسان والذات اللامتناهية المتمثلة في الله لكي يكتمل تعريف الإنسان.

إن الذات اللامتناهية عند إقبال لا ينبغي أن ننظر إليها نظرة كمية من حيث الكبر والامتداد، بل ينبغي أن ننظر إليها نظرة كيفية من حيث الشدة والقوة، فما يميز الذات

---

[1]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص170.

[2]- الإسراء:85.

[3]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام ، مصدر سابق، ص171.

اللامتناهية عن باقي الذوات أنها ترتبط بالخلق والقدرة و العلم والقدم، وأن هذه الصفات المتعالية تتجلى كلها في قوله سبحانه<< ليس كمثله شيء و هو السميع البصير[1]>> وفي قوله << ولا يحيطون به علما[2]>> ومعنى الآية أن الله أعظم من كل شيء، فهو المتعالي فوق كل فكرة[3].

إذن فالذات ينبغي أن تكون حرة لا مقيدة لتقوم بالفعل الخلاق في الكون، وهذا ما يوضحه إقبال في تعريفه للإنسان، ثم ينتقل إقبال في الإقرار باستحالة انحلال واتحاد الذات المتناهية مع الذات اللامتناهية في التجربة الصوفية، ويبرر ذلك انطلاقا من موقفه بخلود ذات الإنسان، فعندما تكتمل ذات الإنسان وتقوى، تحافظ الذات على تفردها وغيريتها عن الذات الإلهية، ويصور إقبال هذه الغيرية حتى في يوم البعث والحساب ويقول بأن الذات المتناهية بشخصيتها المتفردة تقف أما الذات اللامتناهية في يوم حسابها ليحكم على مصيرها، وأنه مهما كان ذلك المصير النهائي، فإنه لا ينتج عنه فقدان فردية وتفرد ذات الإنسان، وهذا يبين أن القرآن الكريم لا يعتبر التحرر الكامل (أي الاتحاد) هو أقصى حالات النعيم، بل الجزاء الأوفى للإنسان يكمن في النمو التدريجي لسيطرة الذات على نفسها ويكمن في تفردها وقوة نشاطها بوصفها ذاتا مبدعة[4].

---

[1]- الشورى: 11.

[2]- طه:110.

[3]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص44.

[4]- المصدر نفسه، ص191-192.

وهنا يبين لنا إقبال الفرق بين الكمال الإنساني الذين يقولون به أنصار التصوف السلبي وبين الكمال الإنساني المبني على الخلود، والخلود هنا يعني البقاء الذي ليس بعده فناء.

يرى أنصار وحدة الوجود أن الخلاص يكمن في اتحاد ذات الإنسان بذات الله، لأنهم ينظرون للذات اللامتناهية بطريقة خاطئة، فهم ينظرون إليها من حيث الامتداد، فالذات المطلقة تدخل في حيز الزمان والمكان بهذا الفهم، فيكون بذلك الحلول والاتحاد والفناء ممكنا، بينما يرى إقبال أن الذات اللامتناهية–كما رأينا سابقا– لا ينبغي أن نرى لانهائيتها في الامتداد، بل في الشدة والقوة، بهذا المعنى، تصبح الذات المطلقة خارج نطاق الزمان والمكان وأن هذا النظام الزمكاني يصبح كائن مغاير وأجنبي عن الذات المطلقة، وبهذا تكتمل فكرة التفرد عند إقبال بأن الذات لا يمكن أن تكون ذات أخرى، وهذا الاعتقاد يفسح للذات الإنسانية المجال لتسخير قوتها في الفعل الحر لتقوية ذاته وإثباتها[1].

وعليه، فغاية الإنسان هي تقوية ذاته، وتكون تقوية ذاته بتخليق المقاصد وتوليد الرغبات وأن يجعل الحب كوقود يدفع به نحو الكمال، ولا يكون هذا الحب متجليا حقيقة إلا إذا كملت طاعة الإنسان للقانون الإلهي وضبط نفسه في سبيل محبوبه بالعمل والاجتهاد، وهذا ما يؤدي بالإنسان المؤمن للكمال، وهنا نتساءل: ما هي صفات الإنسان الكامل؟

[1]– محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص193–194.

المطلب الثاني: صفات الإنسان الكامل

يرى إقبال أن الذات تصل إلى قمة نمائها عندما تتمكن من الامتلاك الكامل للنفس حتى في حالة الاتصال المباشر بالذات المطلقة. يصف القرآن الكريم رؤية النبي (صلى الله عليه وسلم) للذات المطلقة بقوله تعالى<< ما زاغ البصر وما طغى[1]>>، وهذا هو المثل الأعلى للإنسانية الكاملة في الإسلام.

ويوضح إقبال مقام الإنسان الكامل في النبي (صلى الله عليه وسلم) في عرضه لبيت فارسي يصور تجربة النبي (صلى الله عليه وسلم) المقدسة وهو يتلقى إشراق النور الإلهي مقارنة بتجربة موسي ويقول:" لقد خر موسى صعقا لمجرد لمعة من إشراق نور الحق، أما أنت فقد شاهدت مبتسما جوهر الحق بكامله"، فحتى النبي موسى عليه السلام لم يتحمل نور الإشراق، وأنت أيها الإنسان الكامل (صلى الله عليه وسلم) ابتسمت من عظمة نور الحق ولم ترتجف ركبتاك هيبة[2].

يصف الدكتور عبد الوهاب عزام الإنسان الذي كملت ذاته بقوله: أن هذه المرحلة يكون فيها الإنسان مسيطرا على العالم، مسخرا قوى الكون، نافحا الحياة في كل شيء مجددا شباب كل هرم، يهب الحياة بإعجاز العمل، ويجدد مقاييس الأعمال، ويرد العالم إلى الإيحاء

[1]- النجم:17.

[2]- محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، مصدر سابق، ص193-192.

والسلام، أي تكون للإنسان قوة في عمله تتجلى من خلال تخلقه بأخلاق الله، فهذه القوة تجمع المتضاد وترفع الذوات وتحرر عبيد الشهوات لتحقق السلام[1].

فالإنسان الكامل لديه القوة التنفيذية التي تتحلى بالعدل والرحمة، بعد النظر والإيمان العميق، فهو صاحب الإرادة والاختيار، الذي يغلب الدنيا ولا تغلبه، ولا يخاف الموت لأنه خالد، فهو المؤمن الذي وإن امتلك عرض الدنيا فهي لا تستهويه ولا تغريه، وهو الذي عبر عليه إقبال بالفقير أو القلندر (الدرويش)، ولا يعني أنه ليس له مال ولا جاه، بل حتى وإن كان سلطان الدنيا، يختار بذاته القوية القانعة الفقر والاستغناء، وهذا معنى كلمة الصمد وهي إحدى صفات الله عز وجل، فهو التجلي الحرفي لحديث النبي (صلى الله عليه وسلم) <<تخلقوا بأخلاق الله>>، ومصداق لقوله تعالى:<< ولكن كونوا ربانيين>>[2].

فالإنسان الكامل عند محمد إقبال هو الذي يرينا حضور الله في الحياة، ويعلمنا أن نخلق المقاصد ونبدع في حياتنا اليومية، وأن نوفق بين تجاربنا الروحية والعملية، فهو خليفة الله في الأرض كونه الذات المكتملة، هو غاية الوجود، هو الميزان بين العقل والقلب، النغمة بين الفكرة والروح، يحوز على المعرفة الربانية كشفا وبحثا، فكل المتضادات التي تحمل الجدل في جوهرها تصبح فيه واحدة متفردة.

وفي صفة أنه خليفة الله في الأرض وروح الكون وظل اسم الله الأعظم يقول إقبال[3]:

نائب الحق على الأرض سعيد***حكمه في الكون خلد لا يبيد

[1]- عبد الوهاب غرام، محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره، مرجع سابق، ص89.

[2]- نجيب الكيلاني، إقبال الشاعر الثائر، مرجع سابق، ص65-66.

[3]- محمد إقبال، ديوان الأسرار والرموز، مصدر سابق، ص34.

هو بالجزء وبالكل خبير***وبأمر الله في الأرض أمير

وفي ترجمة الأستاذ نيكلسون يقول[1]:

tis sweet to be god's vicegerent in the world'

And exercise sway over the elements

God's vicegerent is as soul of the universe

His being the shadow of the greatest name

كم هو رائع أن تكون نائب الله في هذا العالم

وتمارس من خلال هذه الصفة السيطرة الحلوة على الذرات (وهنا لا يقصد السيطرة السلبية التي تؤدي للدكتاتورية، بل يقصد كون الإنسان الكامل متخلق بأخلاق الله، فيستطيع أن يسيطر على العالم بتوجيهه إلى الذات المطلقة التي به سبحانه تتقوى ذاته)

نائب الحق هو روح هذا الكون (وهذا يدل على الشرح السابق)

من خلال كونه ظل لاسمه الأعظم.

الإنسان الكامل تكشف عليه الأسرار كشفا، فهو الجامع للمعارف الثلاث، بين تجربة ترقى للذوق، و علم بالتاريخ مع معرفة الطبيعة وأسرارها، وهذا يمكنه من كشف ستار المجهول، ويظهر في قوله[2]:

He knows the mysteries of past and whole

"He is the final cause of god taught "adam the names of all things

[1] -Mohammed iqbal ,the secrets of the sel ,translation: Reynold A. Nicholson, the macmillan company ,london ,1920 ,p 78-79.

[2] -Ibid p 79.

Splendid visions rise from the print of his foot

يعلم (أي إنسان الكامل) خفايا الماضي والمستقبل

يعتبر السبب الأخير لتعليم الحق آدم الأسماء كلها(أي أنه ثمرة تعليم الحق آدم الأسماء في الجنة عند خلقه، فهو يعلم هذه الأسماء كشفا و فكرا، فهو يضع هذه الأسماء في العمل المستمر، فبهذا يصح فيه قول النبي(صلى الله عليه وسلم) "خلق الله آدم على صورته")

رؤى عظيمة ترتقي من بصمة رجليه.(أي من فعله الراقي و وجوده العالي، رجليه تلمس الأرض القاحلة فتحولها إلى جنة من نرجس وأقحوان)

وهو قائد العالم، صاحب فعل خلاق لقيم مبدعة، وفي هذا يقول إقبال[1]:

He executes the command of ALLaH in the world

To human race he brings both a glad message and a warning

He comes both as soldier and as a marshal and a prince

By his grandeur the world is saved

He bestows life by his miraculous action, he renovates old ways of life

He gives a new explanation of life

A new interpretation of this dream

يطبق أوامر الله في العالم (أي أنه لا يخرج عن عبوديته عن الله وطاعته له، بل ينشر هذه العبودية و الطاعة في ذوات العالم.)

[1] - Mohammed iqbal ,the secrets of the sel ,translation: Reynold A. Nicholson, the macmillan company ,london p 80-81.

يجلب للإنسان رسالة تحمل الترغيب و الترهيب في جوهرها(وهذا من جوهر رسالة الإسلام في قوله تعالى << تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون[1]>> فالترهيب والترغيب سبيلين للدعوة الإسلامية، فمن الناس من تقوى ذاته بالترهيب ومنهم من يكون الترغيب عليه مؤثرا، والإنسان الكامل يعلم الحكمة الكاملة من هذا كله)

يأتي كجندي وكأمير (الجندي كناية عن المحارب القوي، الذي لا يخاف التأثير والتغيير، وكأمير كناية على الاستراتيجي الحكيم، الذي يحكم بعقله، فهو يجمع بين المتناقضات في كل واحد متفرد)

بتجلياته الفعلية ينقذ العالم (أي لا يكون فقط جالس في دور الرهبان يتعبد، بل يشارك في حركة الخلق المستمر للحياة، لانه نموذج الخلق المستمر)

يحيي الحياة بأفعاله العظيمة، يجدد الطرق القديمة في الحياة (لا تقف أمامه معوقات التقاليد والتراث، بل هو قوة تغيير، كالنهر، يحمل معه كل شيء إلى الرقي والقوة)

يعطي تفسير جديد للحياة (وهذه الحياة التي طغت فيها المادية، وانتشرت فيها السلبية، فهو الذي يعطي الحياة روح جديدة)

ويعطي تأويل جديد لحلم الحياة (وهو تكملة للشرح السابق)

وعليه، فإن الإنسان الكامل يمثل الثمرة الأخيرة للتصوف الحق الذي يعرفه إقبال بالتصوف الايجابي، و أن ختام هذه التجربة تكون مؤسسة على حرية ذات الإنسان و تفردها من جهة، وعلى بقائها الدائم وخلودها من جهة أخرى، فبالله وإلى الله، ومن الله ومن أجل الله، يقوم مفهوم التصوف الاقبالي ويتجلى كذات متفردة تساهم في حركة الحياة والخلق

[1]- السجدة:16.

المستمر لها، فهو التصوف الذي غايته الإنسان الكامل، والإنسان الكامل هو غاية الأمة الإسلامية، لتنفى ذات الأنا بعدها في الجماعة، وتكون المجتمع المثالي الذي قال فيه سبحانه:<< كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر وتؤمنون بالله[1]>>

[1]- آل عمران:110.

المبحث الثاني: نقد وتقييم فكر إقبال الصوفي

ولا شك أن طبيعة الفكر الإنساني لا ترقى مهما علت إلى المثالية الخارقة، فكل فكر أمره فيه أخذ ورد، و كل قول يجتمع على إعلاء قيمته القوم، ينصرف الطرف الآخر منهم على نقده وتمحيصه، فهذا دأب الفكر والمفكرون، ومحمد إقبال ليس غريب عن النقد حتى في حياته.

ومن هنا، سنعرض أهم الأفكار التي جاءت ناقدة لبعض المفاهيم في فلسفة إقبال الصوفية الذاتية، وهناك الكثير منهم، ولكننا اخترنا النقاد من مقياسين:

المقياس الأول يتمثل في الموضوعية والاطلاع، فهناك من الباحثين من لم يسخر نفسه لفهم إقبال و قراءة أعماله محترما في ذلك تطور شخصه وفكره وتميزه، ثم حاول نقده وانتقاص قيمته، ويظهر ذلك في نقد هاملتون جيب في" كتابه الاتجاهات الحديثة"[1]، كيف ينقد باحث ما مفكر ذاع صيته وهو لم يطلع على أعماله إلا كتاب، إن هذا لشيء عجاب.

المقياس الثاني الذي نضعه هو تجنبنا كل ما لا يتوافق مع الدراسة والبحث، فنحن لا نريد أن نتورط في الخروج عن إشكاليتنا التي وضعناها قيد الدراسة، فإن وجدنا أفكار نقدية تخالف النقاط المحورية الثلاث (التصوف، خودي والإنسان الكامل) التي يدور حولها بحثنا فلا حاجة لنا بها، إلا لتطلب ذلك تفصيل وتوضيح آخر، ومنه دراسة أخرى.

[1]- محمد الساعدي، محمد إقبال اللاهوري عبقري الفكر والإصلاح، مرجع سابق، ص641.

المطلب الأول: نقد فكر إقبال

1- نقد حسن حنفي

يعرض الباحث "حسن حنفي" في كتابه "محمد إقبال: فيلسوف الذاتية" بعض الملاحظات النقدية، وتتمثل في:

- ✓ التصوف السلبي

ويقول في إقبال أنه مع التصوف و ضد التصوف، أي مع التصوف الذي غايته البقاء، وضد التصوف الذي غايته الفناء، ثم يواصل في تبيان غرابة هذا الموقف، ويعتبر أن كل مصطلحاته صوفية الأصل مثل المقامات والأحوال والقلب، ومع هذا يرفض أصلها الذي أتت منه، فيقول بأن التصوف السلبي مرفوض، ثم يستخدم ألفاظه، ومثل ذلك إطلاقه للفظ "الفقر"، ولكنه يبدل معناها الصوفي إلى معنى أقرب ما نقول بالأرضي الدنيوي، فالفقر ليس زهد فيما عند غير الله، ولكنه امتلاك لكل ما عند الله مع الاستغناء عن قيمة الأشياء قلبا وهذا يراه حسن حنفي موقف غريب.

ثم يواصل بذكر مفهوم آخر توارد في مصطلحات أهل التصوف السلبي واستعمله إقبال بالرغم من نقده للأصل، ألا وهو الحقيقة المحمدية، التي هي المقام الذي يؤله فيها محمد مثلما أله عيسى، ومن هنا ينقد حسن حنفي ازدواجية إقبال من خلال استعماله لمصطلحات من ألف فيهم العديد من الكتابات المخصوصة لنقدهم ثم يستعمل لغتهم ومعانيهم[1].

[1]- حسن حنفي، محمد إقبال فيلسوف الذاتية، مرجع سابق، ص567.

✓ جوهرية الذات

تعتبر خودي محور فلسفة إقبال، ولهذا خصص حسن حنفي الشطر الكبير من كتابه مناقشة وتحليلا، ويعترض حسن حنفي على إقبال في دفع مفهوم جوهرية الذات وكأنها ماهية مسبقة ثابتة دائما، وهذا ما يؤدي إلى جعل الذات كأنها الله نفسه، فيرى حسن حنفي أنه لا فرق بين الذات المتناهية والذات اللامتناهية في المفهوم، فكلاهما جوهر بسيط ووعي خالص، وهذا قول من أنصار الاتحاد ووحدة الوجود الذي نقدهم بشدة ورفض فلسفتهم بالكلية[1].

ومن جهة أخرى، بالرغم من دعوة إقبال للعمل والنشاط ضد التصوف الذي يسبب الكسل والخذلان، إلا أنه يؤمن بالإنسان الكامل، الذي يصوره على أنه المهدي المنتظر الذي سينقذ الأمة من غرقها، وهذا يوضح قوة الطابع العربي في روح إقبال الفارسية التي قال فيها ابن خلدون أن العرب لا يفلحون إلا بصبغة نبوة أو ولاية، وهذا حسب حسن حنفي يتنافى تماما مع العمل والحركة التي تعتبر جوهر الذات وأساس الحياة[2].

2-نقد المستشرق الإنجليزي دكسن

وجه المستشرق "دكسن" عدة إشكاليات على الفلسفة الذاتية لمحمد إقبال، من بينها:

[1]- حسن حنفي، محمد إقبال فيلسوف الذاتية، مرجع سابق، ص566.

[2]- المرجع نفسه، ص571.

أن فلسفة إقبال وإن كانت تظهر بثوب الروحانية، إلا أنها الروحانية التي تسعى للقوة المادية و السيطرة والتحكم، ويصل دكسن في نقده إلى أن إقبال اهتم بالمادة وعظم شأنها إلى حد العباد، وهذا يظهر من خلال تواتر لفظة القوة والسيطرة، وحتى الفقر بالنسبة لإقبال يعني غير الفقر الذي نعيه وندركه، فيعني الاستغناء القلبي، وفي الوقت نفسه ينبغي على المؤمن أن يمتلك المادة ويسيطر على القوى التي تجعل العالم تحت يديها لنصرة الإسلام والمسلمين[1].

لهذا يواصل دكسن ويصرح أن فلسفة إقبال مخصوصة للمسلمين وليس الإنسانية وهذا يدمر وجه الفلسفة التي من خواصها صفة الكونية، أي للإنسانية جمعاء، وفي هذا يرى دكسن أن هذه الفلسفة الموجهة للمسلمين، حاملة لدماء ساخنة توقظ روح التعصب الذي يعاني منه المسلمين، وعليه، من أجل إيقاظ الفرد والأمة، فمحمد إقبال يفشي الغضب وروح الجهاد باسم الإنسان الكامل و التصوف الروحاني[2].

[1]- محمد الساعدي، محمد إقبال اللاهوري عبقري الفكر والإصلاح، مرجع سابق، ص379.

[2]– المرجع نفسه، ص380.

المطلب الثاني: تقييم فكر إقبال

بعد أن عرضنا النقد الذي تعرضت إليه أفكار إقبال، نحاول أن نقدم قراءة شخصية ناقدة للمفكر.

- ✓ لا تصوف سلبي

يرى "محمد إقبال" أن التصوف السلبي كان وجوده بسبب تأثيرات خارجية حصرها في الفكر الشرقي (البوذي، الهندوسي و الزرادشتي) وفي الفكر اليوناني(الهيليني و الهلينستي) وأن هذا التصوف هو سبب كساد وفشل الإنسان المسلم، كونه يقوم على مبدأ الفناء ويركن إلى شطحات الصوفية بدون حد ولا اعتبار للقانون الإلهي.

نرى أن هذا القول بما فيه من الصحة من ناحية تأثير الحضارات ببعضها البعض فإنه لا يعبر إطلاقا عن الأمم التي ظهرت فيها هذه الفلسفات.

لنأخذ البوذية كنموذج، صحيح أن البوذية تهدف للنيرفانا التي تترجم عادة إلى الفناء في مصطلحات الصوفية الإسلامية، ولكن هذا فهم محدود لها، فالنيرفانا تعني الارتياح أكثر منه فناء، فهي التجربة التي إذا وصل إليها الفرد يشعر براحة الزفير بعد شهيق طويل ونفس عميق، فيرى بها حقيقة الحياة، ويعيش بسلام.

إذا سلمنا جدلا بأن هذه الأفكار الأعجمية هي السبب في التصوف الذي يسميه سلبي، ماذا نفسر إذن تطور الحضارة الهندية وازدهار الحضارة الإغريقية في الماضي وتطور الصين في الحاضر وهي تضم أكبر نسبة من البوذيين في العالم كله، وعليه، ليست

الأفكار الخارجية المدسوسة في الإسلام هي سبب الانحدار والتخلف، بل عقل المسلم الذي فهم هذه الفلسفات بمعتزل عن حضاراتها وانجازاتها نراه هو المشكل الأساسي.

ومنه، نرى أن محمد إقبال غفل عن قوة المادة في تشكيل التاريخ الذي يقول أنه مربوط بوجود الذات، فركز على جانب واحد هو الفكرة فقط، ونرى أن هذا رؤية ناقصة لفلسفة وضعت لتكون شاملة.

ومن جانب آخر، يرفض محمد إقبال موقف المستشرقين في إرجاعهم أصل التصوف لهذه الفلسفات، ويرى أن أصل التصوف هو القرآن الكريم،وحاجج على ذلك في أطروحته "تطور الفكر الفلسفي في إيران" على اعتمادهم مبدأ العلية في ربط الحدث من الفناء الأعجمي إلى التصوف الإسلامي، مما أوقعهم في الزلل، وفي الوقت نفسه، نجده يربط رؤيته للتصوف السلبي بسبب هذه المؤثرات الخارجية، فكأنه نقد نفسه بنفسه، كأنه يقول أن التصوف الحق هو الذي نفهمه ونريده، أما غير ذلك، فهو أساطير الأعجميين، وهذا نراه راجع للحمية والارتباط بالدين الحنيف أكثر منه أكاديمية و تفكير مضبوط.

- ✓ هناك مادة

يرى إقبال أن مركز الكون هو الذات، وأن كل شيء ذات حتى المادة، بهذا الادعاء استطاع إقبال أن يقفز على المشكلة الأساسية في الفلسفة القائمة على أولوية العقل على المادة أو العكس، فجعل المادة "ذات" ذات رتبة متدنية ومنها يبدأ الخلق، أراد أن يضرب عصفوريين بحجر واحد، أن يحل مشكلة الروح والمادة بتغيير مفهوم المادة وجعلها والروح

على درجات متفاوتة من الذات التي هي عنصر جوهري، وأن يتهرب من نظرية التطور التي تناقض بشكل صريح إدعاء الأديان في الخلق

يرى إقبال أن الخلق ينبثق من الذوات ذات مرتبة دنيا إلى الذوات الأعلى وهكذا حتى يصل للإنسان الذي هو أعلى المراتب، حتى الوصول إلى الإنسان الكامل الذي هو صورة الله وكلمته، ولكن ماذا عن آدم، هل خلقه الله حجرة ثم تطور، أم خلقه شجرة ثم تطور لإنسان ونسي حالته الأولى كما يشرحها إقبال على لسان مولانا الرومي، إضافة إلى ذلك، رغم الاعتماد الثقيل خاصة في محاضراته "تجديد الفكر الديني في الإسلام" على القرآن في استدلالاته، إلا أننا لا نرى فكرة انبثاق الذوات إلا كما قال ابن العربي بالفيض أو الصدور الافلوطيني، لا نرى اختلاف رغم الخلاف، وعليه، الرؤية الكونية للذات والخلق مع الانبعاث نجد أن هذه المفاهيم تداخلت بشكل عجيب في إطار رؤيته الأصولية التقليدية.

- ✓ الإنسان الكامل خيال

نرى في فكرة الإنسان الكامل رغم تشعبها في التراث الصوفي، أي نجد جذورها في معظم الثقافات والأديان، تأتي من الخوف الوجودي الذي يصيب الإنسان وخاصة عندما تكون الحياة صعبة، فإنه ينتظر المخلص المسيح أو المهدي المنتظر لكي يحرره من عبوديته المثالية. ونرى أنها خيال يريده أن يكون واقعا، وأن النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي هو الإنسان الكامل بنور الله ووحيه، هو نبي اصطفاه الله، أي حالة خاصة، ولا يمكن أن نتوقع التطور والرقي وترك الكسل وتحقيق ذواتنا وفي نفس الوقت ننتظر من فينا يصبح هذا الإنسان وينقذنا، فرؤية إقبال هنا، تجمع بين الشاعر الوجداني الحائر والمفكر العقلاني

الباحث، وإن اجتمع الاثنان في عبد، فأمره صعب، وهذا هو حال إقبال. وعليه نرى بأن الإنسان الكامل هو رسالة الله في ذاتها.

خلاصة القول، نرى أن المجتمع الصحي هو الذي يسمح لبعض أفراده بالرهبنة والفناء ويحميهم و يقدرهم، لأنه يستحيل أن يختار كل الناس هذا الطريق، فهو طريق الخاصة وليس العامة من جهة، ومن جهة أخرى لطالما كان هؤلاء القوم مبدعين وحكماء وإن كانت مشكلتنا مع العمل و رؤيتهم في معابدهم تضيق الصدور، فاعلم أن العمل أجناس وأنواع ولا ينبغي أن نرى العمل كإجبار أصلا، بل ينبغي أن ندع الفرد يقرر مصيره، وماذا لو أراد الفرد أن يعتزل، أنحاربه؟ لا، ليس هذا منطق الحكماء، البعض منا سافر في عمقه بالتجربة والبعض الآخر اختار أن يكون في حدود الحواس، إذن، لا نرى في تصنيف التصوف السلبي والايجابي تصنيف معقول، لأن إقبال يستطيع أن يقول التصوف المرفوض أو المحرم أو الممنوع بدل السلبي، ولكنه مرتبط به نوعا ما، ونجد ذلك في نقد حسن حنفي جليا.

وفي الختام نقول، لسنا بأهل معرفة يمكننا من خلالها نقد علم من أعلام الفكر الإسلامي وإطلاق الأحكام، ولكن المحاولة لا تضر، فالحكمة أحيانا عندما تأتي من الصغير، تكون أعمق.

خاتمة

الخاتمة

نرى أن محمد إقبال نموذج الفيلسوف المسلم المتمسك بشرع الله، الذي جمع بين الحنكة التحليلية النقدية، وبين الذوق و البصيرة، فكانت نتيجة ذلك وجدان تجلى في شعر راقي، وعقل تجلى في كتابين يعتبران بالنسبة لنا نموذجان للباحث المسلم.

ونقول كما قال الفيلسوف الانجليزي "بيتراند رسل" في كتابه التصوف والفلسفة "لقد شعر عظماء الرجال من الفلاسفة بالحاجة للعلم والتصوف معا...فوحدة التصوف مع رجل العلم تشكل أعلى مكانة مرموقة فيما أعتقد يمكن إنجازها في عالم الفكر...فهذا الانفعال (التصوف) هو الملهم لما هو أفضل ما في الإنسان"، وما ذلك إلا تقدير عالي القيمة من رجل التحليل المنطقي.

ونرى أن فلسفة إقبال لم توفي حقها من الدراسة، خاصة وإنه يدعو للعمل المرتبط بالروحانية، وهذا شيء نكاد نفقده في مجتمعاتنا الحالية، ففي زمان تأليه المادة واغتراب الإنسان، نحتاج إقبال فلسفة وشعرا.

وختاما، نقدم لحضراتكم نتائج بحثنا، ونرجوا مجددا أن نكون قد وفينا حق البحث العلمي موضوعا ومنهجا، وأضفنا للمكتبة العربية الإسلامية ولو حرفا مفيدا من المعرفة الحقة.

1- النتائج

- يتميز مفهوم التصوف في الإسلام بالحيوية، فهو يتجلى في أبعاد ومستويات متعددة ودليل ذلك هشاشة أصله اللغوي والاصطلاحي، كونه قائم على الذاتية

والتجربة الصوفية، مما يحيلنا إلى القول أن التصوف هو ظاهرة دينية الأصل، ذاتية الممارسة وفلسفية التعبير تدور حول الأسئلة الكبرى التي تؤرق الإنسان في الوجود كسؤال المصير.

- ❖ النقد الإقبالي للفلسفات التي أثرت في التصوف الإسلامي تعبر عن دوره المميز في الفكر الإسلامي، كونه عنصر ربط بين حضارة الشرق وفكرها، وحضارة الغرب وفلسفاتها، فاستعماله لمناهج الغرب وتحكمه بها، ثم تطبيقها على موضوع التصوف الإسلامي دليل على قوة الانتماء للهوية الإسلامية.
- ❖ التصوف السلبي مرادف للأنانية، يهدف فيه الفرد لخلاص ذاته وتحريرها بدون أن يلقي بالا على تأثير ذلك في صناعة تاريخ الأمم، وتجاهله لدوره في الحياة يؤدي بالإجتماع للتدهور و التخلف.
- ❖ مفهوم التصوف الايجابي عند إقبال ينتقل من الوعي بالذات وإثباتها إلى تحقيقها للخلافة الإلهية في المجتمع الإسلامي، لكون جوهره الفعل لا القول.
- ❖ التصوف الايجابي يظهر في تقوية الفرد لذاته وإثباتها، ويعتمد جوهريا على الجمع بين ممارسة الروحية و الممارسة الواقعية، و منه، التصوف الايجابي هو عمل حي في اطار الزمان والمكان تقوم به الذات لتحقيق كمال الإنسان.
- ❖ التصوف كموضوع في النسق الفلسفي لمحمد إقبال يمثل تجلي لـ "خودي" التي تعتبر جوهر الكون، فالخلق هو انبعاث الذوات من مراتب دنيا إلى مراتب عليا

حتى تصل للإنسان المكرم، و التصوف هو الممارسة الحية لفكرة إقبال للخلق المستمر.

- ❖ لا يكون التصوف إيجابي إلا بإثبات الذات، ولا يكون إثبات الذات فعال إلا بخلق غايات و مقاصد تحيي الفرد وتعطيه الوعي بأهميته في معادلة الكون، ولا يكون ذلك ممكنا إلا بالحب لمن أعطى ورزق وتجنب الوقوع في منة الخلق.
- ❖ غاية التصوف الايجابي هو الوصول للإنسان الكامل، ولا يكون ذلك ممكنا إلا بطاعة الشارع أمرا ونهيا، وضبط النفس و توجيه طاقتها السلبية والايجابية في سبيل تقوية الذات، ليصل الفرد بعد ذلك لمرتبة "خليفة الله"، الذي تتجلى فيه صفات الذات المطلقة.
- ❖ الإنسان الكامل هو الكون في خلقه المستمر، هو صورة الله تنعكس فيه بشكل مستمر، هو الجامع بين المتناقضات، هو العمل الفذ للذات الجوهرية، هو المخلص من التصوف السلبي.
- ❖ إجابة على الإشكالية، كيف يمكن مقاربة الإنسان الكامل انطلاقا من مفهوم التصوف عند محمد إقبال؟ يمكن مقاربة الإنسان الكامل انطلاقا من مفهوم التصوف الايجابي، المبني على إثبات الذات بالتجربة الصوفية، من خلال السير في الطريق المبني على طاعة الأوامر الإلهية وضبط ومجاهدة النفس مع خلق المقاصد وتوليد الرغبات ومحاولة تحقيقها بقوة الحب، للوصول إلى النيابة الإلهية

التي تتمثل في الإنسان الكامل، الذي يعتبر عند محمد إقبال الأمل والمفتاح لتغيير الأحوال الإسلامية فردا و جماعة.

2- توصيات

- إعداد نوادي خاصة تنشط داخل وخارج الجامعة تختص في الدراسات الإسلامية الفلسفية الصوفية، وتهدف إلى نشر الوعي الفلسفي، لكون مجتمعنا ذا طابع صوفي دينيا، فإضفاء العمق الفلسفي قد يساعد في التقليل من الغلو بين الطرق والمذاهب المختلفة، مما يؤدي ذلك للسلام الاجتماعي.
- فتح تخصص فلسفة عربية إسلامية في جامعة بسكرة، فتراثنا هو الأحق بالدراسة والطالب الجامعي ينبغي أن يعرف قيمة تاريخه في أفكار العظماء الذين أرسوا معالم الفكر الفلسفي الإسلامي، وهذا يساعد على إرجاع الهوية التي نكاد نفقدها.
- نرى هناك قلة اهتمام بميتافيزيقا إقبال، وخاصة في جعله المادة ذات متدنية الرتبة وهذا فيما نرى حل عميق للمشكلة الأساسية في الفلسفة بين المثالية والمادية، أي بين العقل والمادة، وهذه إشكالية تستدعي دراسة متعمقة.

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

المصادر باللغة العربية:

1-إبن خلدون، شفاء السائل وتهذيب المسائل، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1996.

2-أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، مطابع مؤسسة، دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، 1989.

3-أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، كتاب التصوف، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، مج11، 2004.

4-رينولد نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، تر: أبو العلاء العفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1976.

5-محمد إقبال، تطور الفكر الفلسفي في إيران: إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية، تر: محمد الشافعي، محمد جمال الدين، الدار الفنية للنشر والتوزيع، ط1، 1989.

6-محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، تر: محمد يوسف، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 2011.

7-محمد إقبال، ديوان محمد إقبال، إعداد: عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ج 2، ط3، 2007

8-محمد إقبال، ديوان محمد إقبال الأعمال الكاملة، إعداد: عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ج1، ط3، 2007.

9-محمد إقبال، الأسرار والرموز، تر: عبد الوهاب غرام، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2014

المصادر باللغة الأجنبية:

10-Mohamed iqbal ,gulshan-I raz-I jadid and bandagi namah , translation :bashir ahmed dar ,Institute of Islamic culture , Lahore,1964.

11-Mohammed iqbal ,the secrets of the self ,translation: Reynold A. Nicholson, the Macmillan company ,London,1920

قائمة المراجع اللغة العربية:

12- أبو العلا العفيفي، التصوف: الثورة الروحية في الإسلام، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2020.

13- أبو الوفا الغنيمي التفتاراني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط3، يدون سنة.

14- حسن حنفي، محمد إقبال: فيلسوف الذاتية، دار المدارس الإسلامي، لبنان، ط1، 2009.

15- عباس محمود العقاد، دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2014.

16- عبد الوهاب غرام، محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2014.

17- علي بن العبيد أحمد الوصيفي، موازين الصوفية في ضوء الكتاب والسنة، دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، مصر، 2012.

18- مجدي محمد إبراهيم، التصوف السني: حال الفناء بين الجثيد والغزالي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط1، 2002.

19- مجدي محمد إبراهيم، التجربة الصوفية: بحث في تحقيق العلاقة بين اعتقاد الثنائية ورؤية الواحدية في تجربة (العارف) الروحانية، بدون دار النشر، القاهرة، 2000.

20- محمد الساعدي، محمد إقبال اللاهوري، عبقرية الفكر والإصلاح، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران، إيران، ط1، 2014.

21- نجيب الكيلاني، إقبال الشاعر الثائر، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، بدون سنة.

22- نهاد خياطة، دراسة في التجربة الصوفية، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2023.

قائمة المقالات:

23- بيبي مرزاق، مفهوم الذات عند محمد إقبال، مجلة دراسات، العدد1، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة، الجزائر، 2010.

24- زهراء عاشور، التصوف عند الإمام الغزالي، المركز الجامعي العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر.

25- عفاف مصباح بلق، التصوف الإسلامي (مفهومه- نشأته وتطوره، مصادره)، مجلة كليات التربية، جامعة الزاوية، العدد 14، يونيو، 2019.

26- علي شويني، نادية درقام، التصوف الإسلامي ومشروعية التسامح جلال الدين الرومي نموذجا، المجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، الشلف، المجلد 12، العدد 1، 2019.

27- فاطمة داوود، التصوف الإسلامي مفهومه وأصوله، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد 1، 2004.

28- مخلوف حمودي، التصوف عند محمد إقبال، مجلة المعيار، العدد 76، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، 2010.

29- مشانة محمد عبد العزيز ومناد طالب، ملامح النزعة الإنسانية في التصوف الإسلامي (قراءة في أعمال محمد إقبال)، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، الجزائر، العدد 3، 2022.

30- ميلود خلق الله، موقف إقبال من التصوف، مجلة معارف، قسم2، السنة السابعة، العدد: 2012/12/13.

31- ياسر جابر، خالد عبد الله عون، التصوف السني والتصوف الفلسفي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر.

قائمة المعاجم والقواميس

32- إبراهيم مذكور وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2004.

33- ابن المنظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج11، ط 3، 1994.

34- بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1987.

قائمة المواقع الالكترونية :

35 -https://www.etymonline.com/word/Sufism#etymonline_v_38

الملخص

الملخص:

الكلمات المفتاحية : التصوف، التصوف السلبي، التصوف الايجابي، خودي، فلسفة الذات، الإنسان الكامل

تهدف الدراسة إلى تناول مفهوم التصوف عند محمد إقبال(1877-1938)، حيث يعتبر مفهومه للتصوف أساس في طرحه الفلسفي المبني على "خودي"، ويميز بين نوعين من التصوف: التصوف السلبي المبني على مفهوم الفناء، وهذا يقول به أنصار وحدة الوجود أمثال "محيي الدين ابن العربي" (1164-1240)، ويهدف إلى الاتحاد والحلول. وهذا النوع يرفضه إقبال تحت حجة أنه ينشر روح الكسل في المسلم، وتصوف ايجابي يقوم على إثبات الذات وتقويتها بالعمل الخلاق والمبدع على عكس الأول، وغايته الوصول إلى النيابة الإلهية التي يتمثل فيها الإنسان الكامل.

Abstract

Keywords : Sufism, negative Sufism, positive Sufism, khudi, philosophy of self, perfect human.

The study aims to address Muhammad Iqbal (1877-1938) concept of sufism, his concept of sufism is central to his philosophical doctrine which is based on the "self", he distinguishes between two types of Sufism negative sufism based on the concept of annihilation, which is advocated by pantheists such as Muhyiddin Ibn al-Arabi(1164-1240), It aims to union and dissolution, Iqbal rejects this type of sufism under the argument that it spreads laziness in the Muslim world, the other type is positive sufism based on self-affirmation, it aims for strengthening "khudi" through creative work to reach the divine nature and become perfect human .